شبهات المستشرقين
حول العقيدة الإسلامية
(رؤية نقدية)

اعداد / محمد عبد الرحيم البيومى
قسم العقيدة والفلسفة
كلية اصول الدين بالزقازيق

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خير خلق الله واشرف والمرسلين وعلى آله وأصحابه والتابعين .

أما بعد

لقد امتن الله سبحانه وتعالى على البشرية فارسل نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم هاديا ونذيرا ، وأيده برسالة ليخرج الناس بها من الظلمات إلى النور ، وعبرت رسالته تلك عن عقيدة الإسلام السمحة التى درج على الدعوة إليها أنبياء الله من قبل ، وكان مما تميزت به هذه العقيدة البساطة والوضوح ، والبعد عن التعقيد والالتواء ، أضف إلى ذلك قبولها للبرهان والاقناع العقلى سواء من قبل منزلها سبحانه وتعالى أو من قبل المؤمنين بها ،وهذا ما خلت منه العقيدة فى الديانات الأخرى التى تناولتها يد الجهالة بالتحريف والتزييف من هذا المنطق كان موقف العديد من متعصبى المستشرقين الذين أوغر الحقد قلوبهم فتناولوا العقيدة الإسلامية بالتشكيك واهمين أن ما يقومون به من أعمال آثمة تنال من هذا الدين ومن عقيدته . وقد أخطأوا فى ظنهم وتوهمهم ، فالله حافظ دينه ، ومع هذا الحفظ الإلهى للدين إلا أنه يبقى جهد أبناء هذه الأمة فى نصرة دين الله والحفاظ على ما يحتويه هذا الدين من عقيدة وشريعة حيال ترهات المبطلين والمغرضين الذين من جملتهم متعصبى المستشرقين الذى يحمل موقفهم تجاه الإسلام وعقيدته وشريعته مخاطرة عدة من أهمها:

١. إن الاستشراق بما يضمره للإسلام وما يلقيه من شبهات حول مصادره واحكامه يحاول امتلاك العقول وزخرفة الأفئدة عن معتقدها الصحيح الراسخ مما يهئ للتبعية له وللقوى التى تقف من خلفه ووراءه.

٢. أن العمل الاستشراقى بما يحويه من شبهات لا يمكن تجليته إلا بدقة فى البحث والنظر إذ أنه يعتمد على ما يسمى باسلوب دس السم فى الدسم ومن ثم يصعب افتضاح أمره لأن العدو ههنا متدثر برداء العاشق المحب والخلص الأمين.

٣. ان كثيرا من المستشرقين فى مؤلفاتهم يكيلون المدح للإسلام والثناء عليه ويظهرون العديد والعديد من محاسنه ثم يعمدون إلى جانب واحد فيه يجودون الشبهات من حوله ليسهل الاقتناع بما يقولون والانقياد لما يلقون فى العقول والأفئدة من شبه وترهات وأباطيل وهذه الطريقة من أخطر الطرق التى من شأنها أن تلبس على الناس أمر دينهم وتجعلهم فى ريب من أمرهم.

٤. ان الاستشراق وقواه التى تقف من خلفه قد نجح فى تجنيد العديد من أبناء المسلمين حتى جعلهم تابعيين مخلصين له ولمبادئه وهذه الفئة مما نطلق عليهم اسم المستغربين خطرهم على الإسلام أشد من غيرهم لأن من المفترض فيهم – وهم ابناء الإسلام – أن يكونوا مدافعين عن دينهم ومعتقدهم بيد أنهم فقدوا عنصر الولاء لهذه الأمة حتى صاروا سوسا ينخر فى عظمها ، وللأسف الشديد فإن كثيرا من الناس يحسنون الظن بهم ويفتنون بمعسول كلامهم وبريق أفكارهم لا لشئ سوى أنهم ينتمون إلى الإسلام ويرتدون عباءته ويتدثرون بدثاره فهؤلاء ومن شابهم أشد خطر على الإسلام من أعداءه أنفسهم فينبغى تبصير الأمة بمراميهم وأهدافهم لئلا يقع الناس فريسة لمطاعنهم وسوء طويتهم.

من أجل هذه الأمور وغيرها كان هذا البحث الذى بصدده والذى قسمته إلى فصلين ، أما الفصل الأول فقد تعرضت فيه لبيان مفهوم كل من الاستشراق والتغريب والعلاقة بينهما ، ثم تعرضت بعد ذلك لبيان نشأة الاستشراق ، ودوافعه، وأهدافه ، وسبل مواجهته. أما الفصل الثانى فقد تعرضت فيه فى عشرة مباحث لجانب من شبهات. المستشرقين حول العقيدة الإسلامية عارضا وناقدا. مبينا فى هذا المبحث سوء فهمهم لما يقولون وفساد طويتهم فيما يريدون.

والله أسأل أن يجعل هذا العمل خالصا لوجه وأن يحفظ ديننا من الشرور والفتن ما ظهر منها وما بطن إنه ولى ذلك والقادر عليه.

الفصل الأول الاستشراق

الاستشراق (مفهومه ،ونشأته ، وأهدافه)

المبحث الأول

الاستشراق مفهوم ومعناه

إن كلمة استشراق أو ما يعبر عنه بالإنجليزية "Qrientalism" مشتقة من كلمة "Qrient" بيد أن هذه الكلمة اتخذت مدلولاً معيناً حتى أضحت مصطلحاً خاصاً يطلق على ذلك النوع من الدراسات التى يقوم بها الغربيون حو ديانات الشرق ومعتقدات أهله وحضارته وآدابه وتاريخه ولغاته . والمستشرقين هم علماء الغرب الذين اعتنوا بدارسة الإسلام واللغة العربية ولغات الشرق وآدابه[١] ومن هذا المنطلق ينبغى علينا عند التعرض لبيان مفهوم الاستشراق أن نوضح ما يلى :-

١. أن مفهوم الاستشراق و إن كان يشمل كل ما يتعلق بالشرق أو يختص به من حيث أصل الإطلاق ف'نه فى الواقع ينصب فى المقام الأول على التناول فإنه بالدارسة الإسلام وعقائده و شرائعه وتاريخ المسلمين وحضارتهم واللغات التى تتحدث بها الشعوب وآدابها.

٢. أن مصطلح "الاستشراق" قد توسع فى استعماله حتى أضحى يطلق على اهتمامات غير المسلمين أيا كانت جنسياتهم باللغة العربية والعلوم الإسلامية وبهذا يدخل ضمن المستشرقين كل من تعرض بالدراسة للإسلام وعلومه وآدابه من غير الغربيين كالصينيين والهنود على سبيل المثال.

٣. أن الاستشراق بمفهومه السابق قد اسهم فى صياغة التصورات الغربية عن الشرق عامة و عن العالم الإسلامى بصورة خاصة معبراً عن الخلفية الفكرية للصراع الحضارى بينهما.

---

(١) د / أحمد شلبى الاستشراق تاريخه وأهدافه ص١٥ ط النهضة المصرية د/ سعد الدين صالح وآخرون الفكر الإسلامى ص ٢٩٤ ط جامعة الإمارات وكذا www.islamweb.ner وكذلك www.k١٢٨.com

٤. أن التغريب كمصطلح له ارتباط وثيق بمصطلح الاستشراق ومفهومه إذ إنه يمثل تياراً فكرياً ذا أبعاد سياسية واجتماعية وثقافية.... يرمى إلى صبغ حياة الأمم بعامة والمسلمين خاصة بالاسلوب الغربى وذلك بهدف إلغاء شخصيتهم المستقلة وخصائصهم المتفردة وجعلهم أسرى التبعية الكاملة للحضارة الغربية فهو يعبر عن الخلفيات النفسية وحضارته ويحمل فى أحشاءه كل من يمم وجهه إلى قبلته من أبناء المسلمين. ومن ثم تكمن خطورة التغريب من خلال كون القارئ يسلم زمامه لأربابه من منطلق أنهم كتاب مسلمون ولذا يأمن جانبهم ولا يظن بهم سوءا لأنه يفترض فيهم الغيرة على دينهم والحمية له.

المبحث الثانى

نشأة الدراسات الاستشراقية وتطورها

لقد تعددت الآراء حول نشأة الاستشراق وبداياته والواقع أن الاستشراق كان له تواجد وظهور فى مراحل التاريخ المختلفة ويمكن تتبعها بشئ من الإيجاز على النحو التالى :

أولا : مرحلة ما قبل الميلاد :-

وعندما نتحدث عن الاستشراق فى هذه المرحلة فإننا نتناوله من خلال مفهومه الواسع وهو الاهتمام بالشرق وثقافته وآدابه. فقد حمل لنا القرن الرابع قبل الميلاد حديثاً عن الاهتمام بالشرق وفنونه من خلال رحلات وأسفار هيرودوت الذى قام بها وهو فى الثانية والثلاثين من عمره صوب بلاد الشرق قادماً من أثينا جاب فيها أصقاع البحر الابيض المتوسط ليتوغل فى مصر حتى بلغ شلال النيل جنوباً والبحر الأسود شمالا متأملاً ما بينهما من حضارات الفينيقيين وبابل وغير ذلك سارداً ما شاهده لدى أرباب هذه الحضارات فى مختلف الفنون[1]

وقد غلب على هذا التناول الطابع الاسطورى فى الحديث والمعالجة.

ثانياً:- مرحلة ما بعد الميلاد وقبل بعثة النبى صلى الله عليه وسلم :-

(١) يراجع تفصيل هذه الرحلة فى تاريخ هيرودوت ترجمة عبد الإله الملاح مراجعة أحمد السقاف نشر المجمع الثقافى بابوظبى ٢٠٠١.

وفى هذه المرحلة وجدنا للاستشراق وجوداً من خلال بشارات التواره والانجيل بالنبى صلى الله عليه وسلم وترقب اليهود والنصارى له على اختلاف فى التصور و من خلال حديث التوراة والأنجيل عن النبى المنتظر رسالته كانت رحلة سلمان الفارسى وعداس غلام بنى ثقيف وكان كذلك رسم لشخصية النبى المنتظر لدى العرب حتى وجدنا أمية ابن أبى الصلت يأمل ان يكون هو نبى آخر الزمان من خلال ما سمعه فى رحلاته من بعض اليهود والنصارى عن نبى آخر الزمان الذى يظهر فى جزيرة العرب ومن خلال تناثر هذه الأخبار والأسفار كان تشكيل فكر ورقة بن نوفل وغيره من الحنفاء ، وإن كان لبعض اليهود تصور آخر لنبى آخر الزمان ورسالته إذ كانوا يأملون أن يكون واحداً منهم وبهذا كانو يستفتحون على العرب ويتوعدونهم به ، وبظهوره فيهم يقتلونهم قتل عاد وإرم.

ثالثاً : الاستشراق فى العهد النبوى :-

إن من نافلة القول أن تقرر أن رسالة النبى محمد صلى الله عليه وسلم وجدت عداء بالغا من قبل كثير من اليهود والنصارى منذ بزوغ نورها فكان قبول رجال الدين النصارى للرشوة فى الحبشة من وفد قريش الذين وفدوا إليها ليردوا من هاجر من المسلمين إلى مكة ليرزخوا تحت نير عذاب كفارها ومحاولة رجال الدين من النصارى إلباس الحق على النجاشى منخلال جعفر بن ابى طالب معه وغير ذلك من المطارحات الجدلية التى حملها التاريخ وأيدها القرآن فى فترة العهد النبوى بين النصارى والمسلمين، أما بالنسبة لليهود فقد أيقنوا أن الرسالة الجديدة جاءت لتنتزع منهم القيادة التى طالما افتخروا بها صلفا وتيها على غيرهم ودعواهم التفرد بالصلة مع الله عن طريق وحبه والكتاب المقدس المنزل من عنده سبحانه ، وزاد حقد اليهود حينما رأوا الرسالة الجديدة وقد ملأت طباق الأرض نماءاً فى أقصر مدة عرفها التاريخ فى حين أنهم يعرفون كيف تعثرت اليهودية وكيف حوربت المسيحية لقرون عديدة ولكن انتصار محمد صلى الله علية وسلم قد تحقق فى حياته وفى سنوات معدودة من بداية دعوته.

من هذا وغيره انطلق الصراع الفكرى لدى اليهود تاركين الصراع العسكرى لقريش ومن ثم كان جدلهم و تشكيكهم فى الإسلام علهم أن يردوا الناس عنه[١] وقد سجل القرآن ذلك بقوله ﴿**وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُواْ وَاصْفَحُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ**﴾ [٢] وما عبر عنه القرآن الكريم فى الآية السابقة هو نهج الاستشراق دائما. من خلال إلباسه الحق بالباطل وإلقاء الشبهات فى عقول الناس وأفئدتهم.

رابعاً : الاستشراق بعد عهد النبى عليه السلام وحتى الدولة الأموية:

كذلك وجد الاستشراق بعد عهد النبى صلى الله عليه وسلم لاسيما بعد اتساع رقعة الدولة الإسلامية وانتشار الفتوحات الإسلامية فى شتى بقاع الأرض واختلاط المسلمين بأرباب الثقافات الأخرى ، كل هذا وغيره أدى إلى وجود حركة الاستشراق بعد النبى صلى الله عليه وسلم وقد تمخض عن ذلك ولقد حمل لنا القرن الثانى الهجرى نشاطاً للاستشراق إبان حكم الدولة الأموية وذلك فى بلاد الشام بواسطة الراهب يوحنا الدمشقى وبدا ذلك من خلال كتابين "الأول حياة محمد "والثانى" حوار بيم مسيحى ومسلم" وكان يهدف من خلال هذين الكتابين إرشاد النصارى فى جدل المسلمين[٣].

خامساً : الاستشراق فى عهد الدولة الإسلامية فى الأندلس:

لقد ازداد بغض النصارى للإسلام وحنقهم عليه بعد سقوط عدد من الممالك النصرانية فى يد المسلمين وبخاصة بعد أن تكوّن للمسلمين دولة فى بلاد الأندلس فنشط الاستشراق على إثر ذلك وظهرت جهود المستشرقين فى التوجه ضد الإسلام ومعاداته زبهذا ظهر عدد من المفكريين الذين اهتموا بالدراسات الشرقية عامة والإسلامية خاصة فمن هؤلاء:

---

(١) الاستشراق تاريخه أهدافه ص ١٦ ، ١٥ بتصرف كبير.

(٢) سورة البقرة آية ١٠٩.

(٣) الموسوعة العربية نقلا عن www.k١٢٨.com

١. هربردى أورلياك "٩٣٨-١٠٠٣م" من الرهبانية البندكية قصد الأندلس وقرأ على أستاذتهم ثم انتخب بعد عودته إلى فرنسا – حبر أعظم – وأطلق عليه اسم " "سلفستر الثانى" "٩٩٩-١٠٠٣م" فكان بذلك أول بابا فرنسى.
٢. جيراردى كريمونا "١١١٤ – ١١٧٨م" إيطالى قصد طيطلة وترجم مالا يقل عن ٨٧ مصنفاً فى الفلسفة والطلب والفلك والتنجيم.
٣. بطرس المكرم "١٠٩٤-١١٥٦م" فرنسى من الرهبانية البندكية رئيس دير "كلونى" قام بتشكيل جماعة من المترجمين للحصول على معرفة موضوعية عن الإسلام وقد كان هو ذاته وراء أول ترجمة لمعانى القرآن الكريم إلى اللغة اللاتينية (١١٤٣م) والتى قام بها الإنجليزى "اوبرت أوف كيتون".
٤. يوحنا الإشبيلى يهودى متنصر ظهر فى منتصف القرن الثانى عشر اهتم بدراسة العلوم العربية والإسلامية وقد نقل عدداً من الكتب من العربية إلى اللاتينية بمعاونة "إدلرف أوف بات".
٥. روجر بيكون "١٢١٤ – ١٢٩٤م" إنجليزى تلقى علومه فى اكسفورد وباريس حيث نال درجة الدكتوراه فى اللاهوت ، ترجم عن العربية كتاب مرآة الكيمياء وغيره من الكتب[١].

وإذا تأملنا الفترات السابقة من تاريخ الحركة الاستشراقية نجد أنها تتسم بصفتين هما:

١- الفردية

حيث غاب عنها العمل الجماعى إذ كانت تمثل جهوداً فردية لأصحابها.

٢- عدم التنظيم

حيث لم تعتمد على خطط منظمة مدروسة ، وعلى كل الأحوال فقد أفادت الحقب المتقدمة للاستشراق الأزمان القادمة منه إذ إنها كانت بمثابة النواة التى انطلق الاستشراق منها فى مرحلة توجهه الرسمى وما تلاه من مراحل.

---

(١) يراجع فى هذا الموضوع أ- سعيد الأعظمى ، هذا هو الاستشراق فما هى عدتنا نحوه ضمن سلسلة الإسلام والمستشرقين ص ٤٥٧ط عالم المعرفة جدة وكذا أ.د / محمود حمدى زقزوق الإسلام والاستشراق ضمن سلسلة الإسلام والمستشرقين

سادساً : مرحلة الاستشراق اللاهوتى الرسمي:-

تعبر هذه المرحلة من تاريخ الاستشراق بمثابة التوجه الرسمى اللاهوتى للمستشرقين وانتقالهم من اعمل الفردى غير المنظم إلى العمل الجماعى المدروس والمنظم حيث صدر قرار مجمع فيينا الكنسى عام ١٣١٢م بإنشاء عدد من كراسى اللغة العربية فى عدد من الجامعات الأوربية وكان من أبرز المستشرقين فى بدايات هذه المرحلة "ريموندلول" ١٢٣٥-١٣١٤ الذى قضى تسع سنوات "١٢٦٦-١٢٧٥" فى تعلم العربية ودراسة القرآن الكريم وقد بابا روما وطالبه "بإنشاء جامعات تدرس العربية لتخريج مستشرقين قادرين على محاربة الإسلام ووافقه البابا على ذلك. وفى مؤتمر فيينا ١٣١٢م تم إنشاء كراسى اللغة العربية فى خمس جامعات أوربية هى باريس ، واكسفورد ، ويولونيا بإيطاليا ، وسلمنكا بأسبانيا ، بإضافة إلى الجامعة البابوية بروما[١] "ولعل الدافع لهذه البدايات المبكر للاستشراق والتبنى الرسمى للكنيسة له مرجعه الصراع الذى دار بين العالمين بين العالمين الإسلامى والمسيحى فى الأندلس وصقلية وكذا الحروب الصليبية التى دفعت لأوربيين إلى الانشغال بتعاليم الإسلام ومعادات أبناءه وقد نشط اللاهوتيون المسيحيون فى ذلك الوقت ضد الإسلام وزعموا فيما زعموا أن الإسلام قوة خبيثة شريرة وان محمد ﷺ ليس إلا صنماً أو إله قبيلة أو شيطانا ، وغزت الأساطير والخرافات خيال الكتاب الاتنيين ولم يكن الهدف بطبيعة الحال هو تقديم الإسلام بصورة موضوعية ، فهذا أبعد ما يكون عن أذهان المؤلفين فى تلك الحقبة الزمنية وقد اعترف بهذه الكتابات غير العلمية "جيبير دونوجيت" وقال مبرراً ذلك "لاجناح على المرء إذا ذكر بالسوء من يفوق خبثه كل سوء يمكن أن يتصوره المرء"[٢] وقد اعترف كثير من كتاب الغرب بزيف كتابات تلك الفترة عن الإسلام فها"هوساوزن" فى كتابة "نظرة الغرب إلى الإسلام فى القرون الوسطى" يعنون لهذه الفترة الزمنية بقوله "عصر الجهالة". وفى القرن السادس عشر طغت النزعة الإنسانية على المزيد من الدراسات الاستشراقية حيال الإسلام وازدادت مساندة الباوبية الرومانية

(١) الإسلام والاستشراق سلسلة الإسلام والمستشرقين ص ٧١ وكذا هموم الأمة الإسلامية ص ١٦١.

(٢) الإسلام والاستشراق ضمن الإسلام والمستشرقون ص ٧٣ ويراجع د / عبد القهار العانى الاستشراق والدراسات الإسلامية ص٢٩ ط دار الفرقان وكذا الاستشراق تاريخه وأهدافه.

لدراسة اللغات الشرقية من أجل مصلحة التبشير ، ففى عام "١٥٣٩م" تم إنشاء أول كرسى للغة العربية فى "الكوليج دى فرانس" وشغل هذا الكرس "جليوم بوستل" ت "١٥٨١" الذى أسهم فى إثراء الدراسات الاستشراقية حيال العلوم الإسلامية من خلال الاهتمام باللغة العربية وترجمة مخطوطاتها وقد سار على نهجه تلميذه "جوزيف اسكاليجر" ت"١٦٠٩" . وفى القرن السابع عشر ازداد جمع المستشرقين للمخطوطات العربية و إنشاء الكراسى المهتمة بدراستها فى مختلف الجامعات الأوربية ، وأعلن صراحة أن هذا النشاط الاستشراقى إنما يخدم هدفين أحدهما تجارى والآخرتبشيرى ، فقد جاء فى خطاب للمراجع الأكادمية المسئولة فى جامعة كامبردج بتاريخ ٩ مايو ١٦٣٦م إلى مؤسسى هذه الكراس ما نصه"إننا نهدف بعملنا هذا إلى تقديم خدمة نافعة إلى الملك والدولة عن طريق تجارتنا مع الأقطار الشرقية وإلى تمجيد الله بتوسيع حدود الكنيسة والدعوة إلى الديانة المسيحية بين هؤلاء الذين يعيشون الآن فى الظلمات[١]

ومن هذا المنطلق كانت العصبية ضد الإسلام سمة لأغلب كتابات هذا العصر حتى وجدنا "سيمون أوكلى" فى كتابة "تاريخ السراسنة" أى العرب المسلمين يصف النبى ﷺ بقوله " إنه – النبى ﷺ – رجل خبيث جداً وماكر ، وإن ما كان يبديه من شمائل طيبة مجرد أمر ظاهرى يخفى حقيقية نفسه التى كان يحكمها الطموح والطمع[٢].

سابعاً : مرحلة ظهور المصطلح "الاستشراق"

وقد بدأت هذه المرحلة مع نهايات القرن الثامن عشر حيث ظهر مصطلح "الاستشراق" وعرف فى الأوساط العلمية الأوربية وكانت البداية فى انجلترا حيث ظهر هذا المصطلح لأول مرة عام ١٧٧٩م ثم عرف بعد ذلك فى الأوساط الفرنسية عا ١٧٩٩ وكان أول إدراج لهذا المصطلح فى قاموس الأكاديمية الفرنسية عام ١٨٣٨م ، وعلى إثر ظهور مصطلح "الاستشراق" وزيوعه فى الدوائر العلمية نشطت الحركة الاستشراقية فكان "جوزيف فون هامر برجشال" ت ١٨٥٦م مؤسس أول مجلة

(١) الإسلام والاستشراق ضمن سلسلة الإسلام والمستشرقون ص ٧٥ ، وكذا الاستشراق تاريخه وأهدافه ص٢٠.

(٢) الإسلام والمستشرقون ص ٧٨ ، ويراجع الاستشراق والدراسات الإسلامية ص ٢٩ ، ٣٠.

استشراقية متخصصة فى أوربا وهى مجلة "ينابيع الشرق" التى صدرت فى فيينا عام ١٨٠٩م – ١٨١٨م. وعلى إثر هذا بدأ المستشرقون فى مختلف بلدان أوربا وأمريكا بإنشاء جمعيات أخرى تحمل نفس الاسم فى بريطانيا ١٨٢٣م ثم الجمعية الشرقية الأمريكية عام "١٨٤٢م" والجمعية الشرقية الألمانية عام "١٨٤٥" وتمخض عن هذه الجمعيات عدد من المجلات والمطبوعات المختلفة التى تهتم بالإسلام وعلومه وثقافته وآدابه حتى أضحت للدراسات الإسلامية تخصصاً قائما بذاته داخل الحركة الاستشراقية العامة وذلك فى نهاية القرن التاسع عشر[1] وقد لمعت فى هذه الفترة كثير من أسماء عتاة المستشرقين الذين أشربت قلوبهم بالعداء للإسلام ومن هؤلاء "جولد تسيهر ، فلهاوزن ، نولدكه ، صمويل زويمر ، المستشرق الألمانى فويلز وكذا كليمن هوار والمستشرق السويدى تور أنديه والمستشرق الانجليزى بالمر ، وغيرهم "من أرباب الحركة الاستشراقية وعتاتها.

ثامناً الاستشراق فى التاريخ المعاصر:

إن المتتبع للتاريخ المعاصر ووقائعه ليقرأ كتاب الحركة الاستشراقية فيه يلاحظ ما يلى :

١- أن الاستشراق المعاصر قد بدأ يغير من قسماته وأساليبه من أجل المحافظة الظاهرية على الصداقة والتعاون بين العالمين الغربى والإسلامى وقد تبلور ذلك من خلال إقامة حوار مسلم مسيحى ومحاولة تغيير النظرة السطحية الغربية إلى المسلمين وربما كمحاولة لاستقطاب القوى الإسلامية وتوظيفها لخدمة أهدافهم الاستشراقية.

٢- كذلك استفاد الاستشراق المعاصر من القنوات الفضائية المفتوحة والتى تغطى بتوجهها الاستعمارى شتى بقاع المعمورة فطوعها لخدمة أهدافه وأغراضه مستفيداً من الوفرة المادية لدى مؤسساته.

(١) الإسلام والاستشراق ص ٧٨ ، ٧٩ بتصريف كبير وكذلك د/ محمود حمدى زقزوق الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع ص٨ ط١ بيروت ١٩٩٩.

٣- كذلك استفاد الاستشراق من ثورة الاتصالات المعاصرة. فعن طريق الإنترنت عمد إلى إنشاء آلاف المواقع التى من خلالها يستقطب بلايين العقول محاولاً إقناعهم بفكره ومعتقده.

٤- استطاع الاستشراق المعاصر جذب كثير من العلمانيين المستغربين ممن ينتمون إلى الإسلام ، فكانوا جنوداً مخلصين له ولمبادئه آخذين فى تسديد الطعنات إلى الإسلام ومبادئه وأعلامه

تحت ستار الحرية والإبداع فكان خطرهم أشد من المستشرقين أنفسهم لتسترهم بعباءة الإسلام وتدثرهم الظاهرى بمبادئه.

هذا بصورة موجزة عن الحركة الاستشراقية فى التاريخ المعاصر. وفى نهاية الحديث عن نشأة الاستشراق وتطوره ينبغى أن نبين أن الفكر الاستشراقى لم يكن مقصوراً على مفكرى الغرب المسيحى فحسب بل كان للمستشرقين اليهود دوراً بارزاً فى منظومة الحركة الاستشراقية فقد استطاعوا أن يكيفوا أنفسهم ليصبحوا عنصراً أساسياً فى إطار الحركة الاستشراقية الأوربية المسيحية فولجوا ميدان الاستشراق بوصفهم الأوربى لا بوصفهم اليهودى اليهودى ، ومن هذا المنطق استطاع اليهودى المجرى.

"جولد تسيهر" أن يصبح " زعيم الإسلاميات"[1] وبانضواء المستشرقين اليهود تحت لواء الحركة الاستشراقية المسيحية الأوربية استطاعوا أن يحققوا عددا من المكاسب منها:-

١- فرض أنفسهم وأيدلوجياتهم الفكرية على الحركية الاستشراقية باسرها.

٢- إبعاد صفة الانعزالية عن كاهلهم والتى يمكن أن تجلبها عليهم صبغتهم اليهودية وبالتالى يقل تأثرهم وينحسر.

٣- تحقيق أهدافهم فى النيل من الإسلام وهى أهداف تتوافق مع أهداف غالبية المتشرقين من النصارى.

(١) الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع ص٩ هموم الأمة الإسلامية ص١٥٨.

المبحث الثالث

دوافع الاستشراق

لقد اتضح لنا فى المبحث السابق كيف أن فترات التاريخ المختلفة لم تخل من توجه بالدراسه نحو الشرق وتراثه أو الإسلام وحضارته ومن هذا المنطق يحق لنا أن نسأل ما الدوافع التى حدث بأصحاب الأمم الأخرى إلى الاتجاه بالدراية نحو الشرق وفنونه وآدابه عامة والإسلام خاصة؟ وللإجابة على هذا السؤال نقول إن الدوافع التى حدث بأرباب الأمم الأخرى إلى الدراسات الاستشراقية متعددة ومتنوعة منها.

أولاً : الدافع الدينى التبشيرى :

ولعل هذا الدافع من أوضح بمكان حيث تجلى من خلال محاولة الاستشراق فى مختلف عصوره التشكيك فى الإسلام وتجلى أيضاً من خلال مجمع فيينا الكنسى الذى أعلن صراحة تبنى الكنيسه بصفة رسمية المشاريع الاستشراقية صوب الشرق عامة والإسلام خاصة ، ومن هذا المنطلق كان زعم "جورج سيل" فى مقدمة ترجمته لمعانى القرآن ١٧٣٦م أن القرآن إنما هو كتاب، اخترعه محمد وقام بتأليفه ، وكان زعم "شيدون آموس" بأن الشرع المحمدى – على حد تعبيره – ليس إلا القانون الرومانى معدلاً ليساير الحياة العربية ، وأن محمداً صلى الله عليه وسلم ما هو إلا ساحر مخادع استطاع أن يحطم الكنيسة فى الشرق وافريقيا بمكره وخداعه ، واستطاع أن يحقق النصر فى معركة وحروبه من خلال توسله بالجنس واباحته المطلقة لأتباعه. يقول الستاذ سعيد الأعظمى "إن الدوافع الاستشراقية نابعة فى الواقع من ذلك المقت الشديد الذى يضمره المستشرقون فى كوامن نفوسهم وخباياهم نحو الإسلام الذى يرونه أكبر خصم فى سبيل حضارتهم المادية..... وللحقد الشديد الذى يحملونه فى قلوبهم ضد الإسلام و المسلمين أرادوا أن يندسوا إلى صفوف العلماء والمسلمين ويتظاهرون بالإخلاص الكبير ليتناولوا علومهم بالدس والتسميم... وبذلك تتحقق نواياهم فى اضعاف الثقة بخلود الإسلام وإضعاف هيبة التاريخ الإسلامى والسيرة والمقدسات الإسلامية من نفوس المسلمين[١].

(١) سعيد الأعظمى هذا هو الاستشراق فما هى عدتنا نحوه ضمن سلسلة الإسلام والمستشرقون ص ٤٥٨.

ومن الجدير بالذكر هنا أن نقرر أن كثير من المستشرقين بدأوا حياتهم بدراسة اللاهوت المسيحى وتقبلوا فى تعليمهم فى أحضان الكنيسة وتحت ظلالها حتى صارت الصلة وثيقة بينها وبينهم والدليل على ذلك مجلة "العالم الإسلامى"

والتى تعتبر من أخطرهم منابر الاستشراق فى العالم والتى أسست فى بداية أمرها فى بريطانيا عام ١٩١١م وقام بتأسيسها "صموئيل زويمر" الذى عرف بباعه الطويل فى تاريخ التنصير. وهذه المجلة لا تزال تصدر من أمريكا ويعمل على تحرير هذه المجلة سبعة عشر عضواً منهم سبعة من رجال الكنيسة ، وأربعة من أساتذة الجامعة تمتد اصول نشأتهم إلى سلك الكهنوت الكنسى ، وبقية الأعضاء من هيئة التحرير لهم ارتباط بصورة أو بأخرى بالبعثات التبشيرية ، ومن هنا كان التبشير والتنصير دافعاً جعل كتاب الغرب ومن تابعهم يصبون سهامهم نحو الإسلام وآدابه... تحت مسمى الاستشراق ومفهومه ليفتنوا المسلمين عن دينهم أو على الأقل يزحزحوا صحة المعتقد من نفوسهم.

يقول وليم جيفورد بلجراف "متى توارى القرآن ومكة والمدينة عن بلاد العرب يمكننا حينئذ أن نرى العربى يتدرج فى سبيل الحضارة "الغربية" التى لم يبعده عنها إلا محمد صلى الله عليه وسلم وكتابه"[١].

ثانياً : الدافع الاستعمارى:

لقد شهد القرن التاسع عشر بلوغ الدول الغربية القمة من حيث التفوق الاقتصادى والسياسى والحضارى والحربى فى حين تواردت – ولا تزال – على الشعوب الإسلامية مرحلة انحدار مريع ، فالدولة العثمانية التى كانت مصدر خطر عظيم على الغرب لم تعد إلا أشلاء مفككة سقطت واحدة تلو الأخرى فى يد المستعمرين، فكان مصدر احتلال فرنسا للجزائر عام ١٨٣٠م، وتونس عام ١٨٨١م، واستولت بريطانيا على عدن عام ١٨٣٩م وعلى مصر عام ١٨٨٢م وعلى السودان ١٨٩٢م وغير ذلك من البلدان والاقطار الإسلامية والعربية.

(١) محمود محمد شاكر – أباطيل وأسمار ص ١٢٨.

ومن هنا تغيرت الخريطة السياسية للعالم وتبع ذلك تغيير كبير فى تحديد نظرة الغرب للشرق. فمن منطلق العمل على إحكام القبضة على البلدان المستعمرة قدم المستشرقون يد العون والمساعدة للعسكريين والساسة من خلال الدراسات الطبيعية الحية التى أجروها على البلاد المستعمرة من حيث العادات واللغات والثقافات والمعتقدات..... الخ ، وكان لهذه الدراسات كبير فى تذليل كثير من العقبات التى واجهت المستعمرين فى البلاد المستعمرة ، ومن هذا المنطلق كان اهتمام المستشرقين الغربيين بدراسة تاريخ البربر وعاداتهم وتقاليدهم... الخ ، وإثارة العصبية بينهم. كل ذلك ليتمكن الاستعمار الفرنسى من تشديد قبضته على هذه المنطقة من العالم الاسلامى.

كما نجد كبار المستشرقين أمثال "بلاشتير ، وماسنيون" يعملون مستشارين بوزارة المستعمرات الفرنسية ، ونجد نفس هذه الظاهرة تتكرر فى بريطانيا وسوريا وأمريكا وألمانيا ، ففى بريطانيا كان المستشرق اليهودى "برنارد ليسو" والذى عمل أستاذاً للتاريخ الإسلامى الحديث بجامعة لندن يعمل مستشاراً بمكتب الخارجية البريطانية أثنا الحرب العالمية الثانية ، و "أندرسون" أستاذ القانون الإسلامى بجامعة لندن يقوم بمسح للقانون الاسلامى فى الدول الإفريقية المستعمرة ويقدم نتائج أبحاثه لمكتب المستعمرات البريطانية ، وبالمثل نجد أن الدراسات الاستشراقية فى الولايات المتحدة الأمريكية تهتم اهتماما عظيما بدول الشرق الأوسط الإسلامية والتغيرات الاجتماعية والسياسية واثر ذلك على المصالح الأمريكية(١).

يقول أ.د/ محمد البهى "وقد تركزت دوافع الاستشراق مع تنوعها أخيرا فى خلق التخاذل الروحى وإيجاد الشعور بالنقص فى نفوس المسلمين الشرقيين عامة وحملهم من هذا الطريق على الرضا الخضوع للتوجيهات الغربية"(٢).

ويقول أ.د. أحمد شلبى :إن كثير من المستشرقين مهدوا السبل للاستعمار لغزو بلاد الشرق ، وبعضهم خدموا الاستعمار مباشرة كضابط وغداريين أو مدنيين وعندما نجح الغرب فى استعمار العالم الإسلامي لعب المستشرقون دورا من وراء حجاب لإفساد

(١) احمد غراب رؤية إسلامية للاستشراق ص٤١ ، ٤٠ بتصرف.
(٢) د. محمد البهى المبشرون والمستشرقون ص ٣٥.

المناهج الإسلامية ، لتشجيع النعرات الطائفية التى تفرق الكلمة وتكثر الانقسامات ، والتقى المستشرقين اليهود والمسيحيون فى ضرورة إنشاء وطن لليهود فى قلب العالم الإسلامى(١).

أما فى العصر فقد اتخذ هذا الدافع السياسى للاستشراق عدة أوجه من أبرزها:

١- الارتباط بين الاستشراق والعمل الدبلوماسى للسفارات الغربية فى العالم الإسلامى.

٢- الارتباط بين الاستشراق وبين مراكز البحوث العمية التابعة للدوائر الاستخبارتية.

٣- الارتباط بين الاستشراق وبين مراكز اتخاذ القرار فى الدول الغربية.

٤- الارتباط بين الاستشراق وبين بعض المراكز الاستشراقية ذات الصلة الوثيقة بالحركة الصهيونية وأطماعها فى فلسطين والشرق الأوسط.

ثالثا الدافع العلمى :

مما لاشك فيه أن ثمة عدد من المستشرقين اهتموا بالدراسات الشرقية يحدوهم فى ذلك حب المعرفة والرغبة فى الاطلاع على حضارات الأمم لاسيما الحضارة الإسلامية على مختلف فروعها بالتحقيق والترجمة والبحث والدراسة ، ومن هذا المنطلق تناول بعض المستشرقين العلوم الإسلامية على مختلف فروعها بالتحقيق والترجمة والبحث والدراسة ، ومن ثم وجدنا عدداً كبير من الدراسات حول الإسلام تصدر من الجمعيات الاستشراقية ، ووجدنا كذلك أيضا عدداً من كتب التراث العربى والإسلامي تنشر من قبل العديد من المراكز الاستشرقية كتاريخ الطبرى وسيرة ابن هشام....الخ وغيرها من الكتاب المتعلقة بالدراسات القرآنية والحديثة والفقه الفلسفة واللغة والأدب والتاريخ ..... وغير ذلك.

كما اهتمت مجموعة من المستشرقين بدراسة تلك المصادر الإسلامية مزودين بكل ما توصلت إليه الحضارة الغربية من مناهج بحثية ونقدية وتاريخية ونظريات فى الاقتصاد والسياسة والاجتماع وأبحاث علم الأجناس وعلم النفس فكتبوا فى القرآن

(١) الاستشراق تاريخه وأهدافه ص ٢٥.

وعلومه والسنة النبوية وما يتصل بها وعلم الكلام وآصالته والفقه الإسلامي وما يتعلق به من تاريخ للتشريع ، وعن رجال الإسلام وأعلامه وانعكست جهود المستشرقين تلك فى تأليف "دائرة المعارف الإسلامية" التى أصدرها المستشرقون فى بداية القرن العشرين ، ولازالت توالى الصدور فى طبعات جديدة ، وشارك فى تحريرها كبار المستشرقين من مختلف الدول الغربية.

يقول الأستاذ الدكتور أحمد شلبى "إن من الحق الذى ينبغى تقريره أن كل المستشرقين لا يدخلون ضمن الإطار العدوانى للإسلام وهناك منهم من أخلصوا لعملهم ودخلوا الدراسات الإسلامية دخول الباحث المنصف الباحث المنصف وأكثر. هؤلاء أبدوا إعجابهم بالإسلام ومنهم من اعتنق هذا الدين.... ولكن ذلك إن كان قد صدق مع بعض المسيحيين فإنه لم يصدق على أحد من اليهود"(١)

إن افنصاف والتجرد يقودان الإنسان إلى إلحق والسير على دربه ومن هذا المنطلق كان إسلام عدد من المستشرقين الذين أخلصوا ضمائرهم للحق والتماس طريقه ، فمن هؤلاء المستشرق الفرنسى "دنييه" الذى اعتنق الإسلام وأخذ فى الدفاع عنه وفضح نيات المستشرقين واساليبهم فى النيل من الإسلام ، وكذا المستشرق النمساوى.

"ليو بولدفايس" الذى اعتنق الإسلام وتسمى باسم "محمد أسد" , وتحدث عن قصه إسلامه فى كتابه الشهير "الطريق إلى مكة" وغير هذين المثالين كثيرا.

أما من بقى على نحلته من المستشرقين فلم نعدم الرأى المنصف عند البعض منهم فها هو "بريفولت" فى كتابه "تاريخ الإنسانية" يقر صراحة بأن العلم الأوربى الحديث يدين بالوجود – لا بالفضل فحسب – إلى المسلمين وعلومهم. ومع كل هذا وغيره ينبغى أن نقرر حقيقية هى من الأهمية بمكان ألا وهى تفاوت القيمة العلمية لما قام به المستشرقون من أعمال ودراسات وذلك لعدة أمور منها :

١- نوعية العمل الذى قام به المستشرق.

٢- مكونات شخصية المستشرق وما تأثر به من فكر لدى تنشئه.

٣- الدوافع التى حدث به إلى هذا النوع من الدراسات.

(١) الاستشراق تاريخه واهداف ص ٢٦.

٤- المنهج الذى اتبعه فى معالجته للموضوعات التى تناولها بالبحث والدراسة.

٥- ملابسات العصر الذى نشأ فيه.

إن مراعاة تلك العناصر المتقدمة تقودنا إلى معرفة وجهة نظر المستشرقين فى البحث والدراسة "فالذين يكتبون من وجهة نظر مسيحية تنصيرية مثلا لم يغيروا كثيرا من نظراتهم للإسلام أو أسلوبهم فى معالجة قضاياه فهم يكررون نفس التهم التى كانت سائدة فى أوربا المسيحية منذ الحروب الصليبية عن الإسلام ورسولة وهم فى الغالب ينطلقون من منطلقات تنصيرية كنسية أو استعمارية(١).

وزيادة على ما تقدم يمكن القول إن أى تصنيف للمستشرقين إلى منصفين ومتعصبين أمر فيه نظر حيث تختلف الآراء من حوله فقد يصدر ممن عرف عنه الاعتدال قولا أو رايا مرفوضا وقد يحصل العكس وتكون بعض آراء المتعصبين إنصاف جميلا للإسلام ولهذا فإن تصنيف المستشرقين با يندرج تحته من أسماء إلى منصفين ومتعصبين أمر فى أغلبه يكون محلا للتوقف والنظر.

(١) الاستشراق والخلفية الفكرية لصراع ص ٧٦ ، ٧٥.

المبحث الرابع

أهداف الاستشراق

مر بنا فى المبحث السابق أن كثيراً من مفكري الغرب اتجهوا صوب الشرق وحضارته والإسلام وتراثه وذلك بالبحث والدراسة مع تنوع دوافعهم فى ذلك ، وانطلاقاً من تلك الدوافع عمل المستشرقون ومن يقف وراءهم على تحقيق عدد من الأهداف المتنوعة بتنوع دوافعهم ، ويمكن بيان هذه الهداف على النحو الالى :

أولاً: الأهداف الدينية :

١. إفساد صورة وذلك بطمس صورة الإسلام وذلك بطمس معاملة وتشويه محاسنه ، وتحريف حقائقه وتقديمه للعالم على انه دين متناقض ويهدفون من وراء ذلك إلى تحقيق أمرين هما:

أ. تشكيك أكبر عدد من العقول الإسلامية فى دينهم.

ب. حماية أوربا من قبل الإسلام بعد أن عجزت عن القضاء عليه من خلال الحروب الصليبية. والواقع أنهم يريدون أمراً والله تعالى يريد أمراً واللع تعالى يريد أمراً فعدد الذين دخلوا فى الإسلام بعد تشويه صورته إثر أحداث الحادى عشر من سبتمبر أكثر من ذى قبل إذ إن هذه الحملة قد دفعت عدداً كبير من الأوربيين إلى البحث عن ماهية الإسلام ومبادئه فكان ذلك سبباً فى هداية الكثيرين منهم إلى الحق والى طريقه المستقيم.

٢. الطعن فى القرآن الكريم والزعم بأنه من وضع محمد ﷺ استقاه من مصادر يهودية ونصرانية ، بل بلغت الجرأة ببعضهم إلى اقتراح اعادة ترتيب القرآن حتى آل الأمر بهم إلى تقديم "فرقانهم" المزعوم كطرح بديل عن القرآن الكريم وقد تبنى ذلك فى البداية "جورج سيل" عندما قال فى مقدمة ترجمته لمعانى القرآن "١٧٣٦" إن القرآن إنما هو من اختراع محمد ومن تأليفه وأن ذلك أمر لا يقبل الجدل" وصرح به أيضا "ريتشارد بل" فى قوله "إن محمد قد استمد القرآن من مصادر يهودية ومن العهد القيم بشكل خاص وكذلك من مصادر

نصرانية" وبهذا قال أيضا "دوزى ١٨٨٣م" ثم كانت دعوى الفرقان مؤخرا من قبل الاستشراقى الأمريكى المسّيس.

٣. الطعن فى نبوة الرسول ﷺ والتشكيك فيما أنزل عليه من وحى إلهى.

٤. التشكيك فى السنة النبوية المطهرة والزعم بأنها صنيعة يد المسلمين فى القرون الثلاثة الأولى. وبهذا يهدفون إلى إسقاط السنة المطهرة والذهاب بهيبتها فى النفوس ومن ثم يفقد المسلمون الصورة التطبيقية الحقيقية لأحكام الإسلام ولحياة الرسول صلى الله علية وسلم ، وبهذا أيضا يفقد الإسلام عنصرا من أهم وأكبر عناصر قوته.

٥. التشكيك فى الإسلام "كدين" وزعم تلفيقه فى أصل النشأة والتكوين من اليهودية والنصرانية.

٦. إحياء الأحاديث الموضوعة والضعيفة والاعتماد عليها فى الدراسات الاستشراقية ليدعم المستشرقون من خلالها آراءهم.

٧. التشكيك فى قيمة الفقه والتشريع الإسلامى بإرجاعه إلى القانون الرومانى.

٨. النيل من اللغة العربية واستبعاد قدرتها على مسايرة ركب التطور فى العلوم والمعارف المعاصرة وتكريس اللهجات العامية والأجنبية لتكون بديلا لها وقد تزعم "لويس ماسنيون" الحركة الرامية إلى ذلك.

٩. العمل على تنصير المسلمين.

١٠. التشكيك فى قيمة التراث الحضارى للمسلمين والزعم بأن الحضارة الإسلامية لا تعدوا عن كونها صدى لما أنتجه الرومان من حضارة وعلوم ولم يكن المسلمون سوى نقلة ومترجمين لفلسفة اليونان وعلومهم.

١١. غرس المبادئ الغربية فى نفوس المسلمين وتمجيدها والعمل على إضعاف القيم الإسلامية والتقليل من أثرها حتى يتم لهم إفساد أبناء المسلمين وانحلالهم ثم توجيههم لخدمة مصالحهم.

١٢. العمل على زعزعة الثقة بعلماء الأمة وأعلامها وذلك لقطع الصلة بين المسلمين وماضيهم وفى المقابل تمجيد الشخصيات الغربية وتعظيمها ليسهل التأثير والانقياد لهم.

١٣.محاولة القضاء على الصورة المثلى للأسرة المسلمة عن طريق مهاجمة التشريعات الإسلامية المعلقة بالزواج والطلاق والقوامة ودفع الفتاة المسلمة إلى التبرج والسفور.

١٤.تشويه صورة الإسلام بزعم أنه دعوة إلى الإرهاب والتطرف.

١٥.تفريغ مناهج التعليم فى البلدان الإسلامية من مضمونها الاسلامى والجنوح بها إلى المفهوم الغربى فى البحث والدراسة.

يقول الأستاذ سعيد الأعظمى "إن أهداف المستشرقين تدور فى الغالب حول التشكيك فى صحة الكتاب والسنة وإنكار النبوة وتزييف السيرة النبوية وهدم صرح الفقه الاسلامى وإثارة الشبهات حول التاريخ الاسلامى وإزالة الثقة بأعلام ورجال الأمة الاسلامية الذين يمثلون السيرة النبوية والخلق والخلق الاسلامى النبيل وكانوا أمثل نموذج للمسلم الكامل..... وظهر المستشرقون فى ذلك للناس نصحاء مخلصين لا يريدون إلا خدمة العلم والدراسة فى موضوعية فاغتر بهذه الدعوى الكاذبة كثير من المسلمين المثقفين ووقعوا فريسة هذا التلبيس الذى تأسس عليه عمل الاستشراق"[1]

ثانيا : الأهداف السياسية :

١- اضعاف روح الإخاء بين المسلمين والعمل على فرقتهم لإحكام السيطرة عليهم

٢- دراسة العادات السائدة لتمزيق وحدة المجتمعات المسلمة.

٣- احياء النعرات القبلية والعصبيات المذهبية والنزعات العقائدية والطائفية.

٤- القضاء على الإسلامية بإثارة النزعات الإقليمية والتى كان من نتائجها الفصل بين مسلمين ناطقين بالعربية وآخريين غير ناطقين بها يقول "اوسمى غو" وزير المستعمرات البريطانية فى تقرير له رفعه لرئيس حكومته فى "٩ يناير ١٩٣٨م" "إن الحرب علمتنا أن الوحدة الإسلامية هى الخطر الأعظم الذى

(١) هذا هو الاستشراق ص٤٦٠ ويراجع أبو الليث الندوى نظرة خاطفة على موضوع الاسلام والمستشرقين ص ١٥٢ ضمن سلسلة الاسلام والمستشرقون ، وكذلك د/سعد الدين صالح احذروا الأساليب الحديثة فى مواجهة الإسلام ص ١٥٨ ط دار الأرقم.

ينبغى على الإمبراطورية أن تحذره وتحاربه وليس الإمبراطورية وحدها بل فرنسا أيضا ولفرحتنا فقد ذهبت الخلاف واتمنى أن تكون إلى غير رجعة"[1]

ومن الجدير بالذكر أن هذه نبرة العديد من المستشرقين إلى يومنا هذا.

المبحث الخامس

سبل التصدي للعمل الاستشراقى

لعلنا فى حديثنا السابق وقفنا على العديد من الأهداف التى يرمى الاستشراق وأذنابه إلى تحقيقها. وانطلاقا من أهمية هذه الأهداف الاستشراقية ينبغى أن تكون قوة التصدى لها الحيلولة دون تحقيقها وقبل أن نبين سبل التصدى لهذه الأهداف الاستشراقية ينبغى أن ننبه على أمرين هما من الأهمية بمكان.

أولهما : أننا ينبغى أن نتعرف بأننا نعيش أزمة عنيفة فى الفكر ، فقد أصبحنا مجرد دارسين لما يطرح علينا من قبل المستشرقين من قضايا دون إيجابية فى المشاركة أو فعالية فى الحوار فمثلنا كمل عمال ينتظرون تكليف العمل ممن يسوسهم. فأرباب الاستشراق يبلوننا بالعديد من القضايا التى نعقد حولها المؤتمرات والندوات ولا غضاضة فى ذلك فالحوار والتبادل الفكرى أمر مطلوب ، بيد أن ما يخالج النفس من ضيق أننا مع قضايا الفكر والاستشراق مجرد مستقبلين. فمتى نبلوا غيرنا بقضايانا الفكرية كما يبلونا هم بقضاياهم وافكارهم؟؟

ثانيهما : أننا ينبغى علينا أن نقف لحظة صدق مع النفس والذات فنضع أيدينا على الداء حتى يكون صحيح الدواء ، أما الداء فيجب علينا أن نعترف أن الاستشراق يستمد قوته من ضعفنا ووجوده نفسه مشروط بعجز العالم الاسلامى عن معرفة ذاته وقدراته فالاستشراق فى حد ذاته يعد دليلا على الوصاية الفكرية من الآخر ، وحين يعى العالم الإسلامى ذاته وينهض من كبوته وعجزه وينفض من على كاهله أثقال التخلف الفكرى والحضارى يومها سيجد الاستشراق نفسه فى أزمة حقيقية ، ولاسيما الاستشراق الذى جعل من الإسلام وحضارته شغله الشاغل ، وحينئذ لن يجد العقول التى يتوجه بالخطاب ليها.

(١) الموسوعة العربية www.alkalemat.com

وإذا عرفنا جانبا من مكمن الداء فإنه يسهل بالتالى وصف الدواء الذى ننشده لمواجهة المد الاستشراقى ويتمثل فى عدد من الأمور من أهمها:

١. التحصين الذاتى للإنسان المسلم فى عالم اليوم ، إذ الوقاية خير من العلاج كما يقولون فبتحصين المسلم وتكوين ذاته بثقافته الإسلامية التىتعبر عن وسطية الإسلام واصالته فى ثوب يتلائم مع العالم ومتغيرات والعصر ومستجداته يربى لدى المسلم بصيرة ناقدة ، بها ينتقى مما يلقى إليه ، لاسيما وان المشكلة الان لا تكمن فى كتب تترجم فيتوهم البعض أن من الميسور السيطرة عليها أو حجبها – مع أن الإسلام أقوى من أن يؤثر فيه ذلك – إلا أن الأمر أعظم خطرا وأشد ضررا إذ لا يمكن السيطرة على القضاء المفتوح وما يحويه من بث موجه فى الخطاب للشباب المسلم. يضاف إلى ذلك الإنترنت الذى التصق به كثير من شباب الأمة حتى صار لهم إدمانا. إذا فلابد من الحصانة الذاتية فهى أول خطوات الحفاظ على الهوية.

٢. علينا أن ننظر إلى حركة الاستشراق بكل جدية موقنين بما لها من آثار عظيمة على جموع المثقفين فى العالم الإسلامى ، وفى تشكيل تصور العقل الغربى للإسلام وتراثه وحضاراته ولهذا لابد من التعمق فى دراسة الآراء الاستشراقية وما تحمله من مرمى ومغزى لاسيما وأن هذه الدراسات بما تحويه من آراء وأفكار وأفكار مسطرة بشتى اللغات الحية مما يضمن لها عالمية التأثير والانتشار وبالتالى لابد أن تكون المواجهة على نفس المستوى العالمى.

٣. ينبغى أن يكون لنا نظرة ورأى فى دائرة المعارف الإسلامية التى قام بإعدادها كبار المستشرقين والتى نقتات دائما منها فى أبحاثنا ودراستنا. لقد وضعت هذه الدائرة للمعارف قبل الحرب العالمية الثانية ولقد تجاوزها المستشرقون ووضعوا دائرة جديدة للمعارف الإسلامية فأين نقف نحن من هذا كله. إن من الواجب علينا أن نقوم نحن المسلمين بوضع دائرة للمعارف الإسلامية باللغة العربية واللغات الحية الرئيسية تقف على الأقل فى مستوى دائرة المعارف

الإسلامية الصحيحة فى شتى المعارف الإسلامية إلى المسلمين وغيرهم على السواء.

٤. إنشاء مؤسسة علمية للدراسات الاستشراقية تتابع ما يخرجه المستشرقون من آراء وافكار وترصد التحولات التى تطرأ على الحركة الاستشراقية وتتبنى الدخول فى حوار جاد وهادف مع المستشرقين من أجل تصحيح الرؤية ونزاهة الغرض ومصداقية الكلمة ، هذه المؤسسة يستقطب لها الكفاءات العلمية الإسلامية فى شتى أنحاء العالم ويصدر عنها مجلات ودوريات ذات مستوى رفيع بشتى اللغات المختلفة.

٥. إنشاء جهاز عالمى للدعوة الإسلامية يزود بكفاءات علمية متخصصة ، تخاطب المسلمين بشتى توجهاتهم فتتبنى بالرعاية الجدد من المسلمين ، وتحمى المسلمين الآخرين من غائلة الاستشراق وما يقترن به.

٦. لابد من إعداد ترجمة مقبولة للقرآن الكريم والسنة النبوية بشتى اللغات لتسد الباب أمام الترجمات المغلوطة للقرآن الكريم والسنة النبوية التى قام بوضعها المستشرقون والتى يصاحبها أفكار ومقدمات مغلوطة عن الإسلام ومصادره التشريعية.

٧. العمل على تنقية تراثنا الاسلامى من الإسرائيليات والخرافات التى اقترنت به وأصبح المستشرقون يدسونها فى مصادرنا الأصلية ليبارزوننا بها بعد ذلك وما قصة الغرانيق منا بعيد[1].

٨. ولكىنصل إلى إنجاز ما تقدم لابد من أن نقف على الأقل على قدم المساواه مع الآلة الإعلامية الاستشراقية ، فالصوت إذا لم يخرج من حلقوم صاحبة لن يفصح أو يبين عما يريد وسيظل حبيسا فى نفس لا يتعدى خلجات صدره.

---

(١) يراجع الإسلام والاستشراق ص ١٠٠ وما بعدها باصرف ، وكذا هموم الأمة الإسلامية ص١٨٧، وكذا الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع ص١٢٣وما بعدها ، وكذا الفكر الاسلامى ص٣٠٢ ، كل ذلك بتصريف كبير.

الفصل الثانى

شبهات المستشرقين حول العقيدة

"أنماط ونماذج"

إن المتتبع لفكر الاستشراقية يجده يعج بكثير يجده يعج من الآراء والأفكار حول الإسلام بكافة جوانبه دون أن يسلم منه شئ ومما تناوله المستشرقون بالعرض والدراسة الجانب العقدى فى الدين الإسلامي. والواقع – كما ستضح لنا – أن هذه الدراسات الاستشراقية حول العقيدة الإسلامية لم تخل من تخل الغمز واللمز الذى يضع المدقق أمام حقيقة مهمة ألا وهى أن المستشرقين مهما ادعو الإنصاف والموضوعية لأنفسهم فإن الخلفيات التراثية لديهم تترك أثراً واضحا فى كتاباتهم واطروحاتهم الفكرية حو الإسلام وتراثه وإن كانوا يتخفون وارء عبارات براقة مغلفة بالمديح والمودة بيد أن مراميها وما تحمله فى رحمها تفصح عن نفسها للمدققين والغيورين على دينهم وعقيدتهم وإن شاء الله تعالى فى الصفحات القادمة سنعرض لجانب من شبهاتهم حول العقيدة الإسلامية نقف من خلالها على فساد طويتهم وسوء نياتهم تجاه الإسلام وعقيدته.

المبحث الأول

المستشرقون وفطرية الدين

لقد حاول بعض المستشرقون أن يشككوا فى الإسلام كدين فطر الله تعالى عليه خلقه وعباده فزعموا أن إنتشار الإسلام عند ظهور مرجعة إلى نزعة التدين التى كانت سمة للعالم فى هذا العصر فعندما ظهر الإسلام وجد أرضا خصبة ساعات على بسوق زرعه واستواء سوقه ومعنى هذا أنه لا مجال لفطرية هذا الدين فى نفوس الناس فالناس لم يتقبلوه لأنه صادف فطرة كامنة فى نفوس وإنما لأن النزوع إلى التدين يعد سمة لذلك العصر الذىامن الله فيه على خلقه وعباده بدين الإسلام يقول "جرونباوم"[١] "لقد ازدهر الإسلام فى العصور الوسطى لأن نزعة الزمان كانت نزعة دينية ، حيث يسجل

---

(١) هو جوستاف أ. فون جرونباوم مستشرق نمساوى من أصل يهودى ولد فى فيينا سنة ١٩٠٩ يراجع محمد قطب المستشرقون والإسلام ص٢٠١م وهبة ١٩٩٩م.

تاريخ العصور الوسطى للأقاليم الواقعة إلى الغرب من بلاد الهند نمو ثلاث وحدات سياسية وثقافية واضمحلالها وعلاقة بعضها ببعض وكان الدين فى غالب الأمر العامل الأكبر فى تحديد تخوم تلك الكتل وكان الفرد من الناس إبان معظم العصور الوسطى يعد نفسه مسيحيا أو مسلما أولا ، تم نزيل ناحيته الخاصة من وطنه ورعية للمولى المحلى. ثانيا : ثم إنه ليس فرنسيا أو مصريا أو جرمانيا إلا فى المقام الثالث والأخير"[١].

وهكذا فإن "نزعة الزمان" كما يرى جرونبام" هى التى مكنت للإسلام وليس أنه دين الفطرة وفى هذا نفى لأى ميزة ذاتية فى الدين لأن نزعة الزمان الدينية هى التى مكنت له وليس فطريته فى نفوس البشر.

* نقد هذه الشبهة :

١- لا بد أن نقرر أن الإسلام هو جين الفطرة وهذا ثابت بالكتاب والسنة أما الكتاب فنجد قول الحق سبحانه" فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله" "الروم٣٠" وأما بالنسبة فنجد قول النبى ﷺ "ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تنتج البهيمة جمعاء عل تحسون فيها من جدعاء اقرؤا إن شئتم قول الله تعالى : **(فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله)**[٢] وقول الله سبحانه فى حديثه القدسى "وإنى خلقت عبادى حنفاء كلهم إلا أن الشيطان أتتهم فاجتالتهم عن دينهم فأحلت لهم ما حرمت عليهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم"[٣]

وعلى هذا فإن الاسلام هو دين الفطرة ولأجل هذه الفطرة كان قبول الناس له بمعنى أنه صادف بذرة غرست فى نفوسهم فقبله الناس.

٢- إن الممتبع لأوال العالم فى فترة ظهور الإسلام يجدها تنقض دعوى "النزعة الدينية للزمان" والتى قالها "جرونباوم" إذ إن العالم فى ذلك الوقت كان يعنى

---

(١) جرونبون حضارة الاسلام تج الاستاذ عبد العزيز جاويد ط م ١٩٥٦م.

(٢) الترمزى ٢٢٣٧ البخارى ومسلم صحيح الجامع ٤٥٦٠ ، رواء الغليل ١٢٢٠.

(٣) رواه مسلم رقم ٧٥٣٧ باب الجنة وصفة نعيمها وأهلها.

من كثير من المذاهب المنحرفة والفاسدة دينيا وأخلاقيافى بلاد فارس وبلاد الروم والجزيرة العربية التى خلت من أى نزعة دينية صحيحة اللهم إلا عند مَنْ يسمون بالحنفاء وكذا فى بلاد الشرق القصى وغيرها من البلاد وإن حدث ووجد بعض من المذاهب الأخلاقية التى تأمر بفضيلة وتنهى عن رذيلة فإن مردها إلى نزعة مذهبية أخلاقية لا دينية وهذا كله يبطل نزعة الزمان الدينية ويعلى من شأن الفطرة التى كم الإسلام فيها؟

٣- إذا سلمنا جدلا بأن العالم كان يمر بنزعة دينية مكنت الاسلام فيه فكيف نفسر وجود المصاعب والعقبات التى اعترضت طريقه إبان ظهوره حتى اضطرت نبى الإسلام ﷺ إلى الهجرة من بلده ووطنه.

٤- كذلك أيضا يجد المتتبع لأحوال الجزيرة العربية وأمور أهلها أن القول بفطرية الدين أو معرفة الله أقرب إليهم والى طبيعتهم من القول بأن نزعة عصرهم هذه كانت نزعة دينية حيث إنهم كانوا مشركين بالله غير مقرين ببعث أو معاد متعارفين بينهم على كثير من العادات التى نقضها الإسلام ومع كل هذا كان عندهم نوع من المعرفة بالله أخبر عنه القرآن بقوله" ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله" وقوله "ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم" ومن ثم كان أكثر معاندتهم ومعارضتهم للإسلام عتوا واستكبارا.

٥- والمتأمل فيما ذكره "جرونباوم" يجده يذهب إلى أن الدين كان سمة من سمات العصور الوسطى وقد أخلى مكانه فى العصر الحديث للعلم وهذا القول وإن كان صحيحا بالنسبة للتاريخ الأوربى فإنه لا ينطبق بحال من الأحوال على حقائق ومسلمات التاريخ الإسلامى لماذا؟ لأن الإسلام قد بدأ جولته من أرض لم تكن متدنية بل هى ارض تعيش فى خرافة الجاهلية فلم تكن "نزعة الزمان" هى التى مكنت للإسلام فى الجزيرة العربية وإنما كان قدر الله الغالب الذى جعل الرسالة الجديدة تتعانق مع مقررات الفطرة فتوقظها من ثباتها.

هذا قبل ظهور الإسلام إبان عصر الجاهلية أما بعد ظهور الإسلام وتغلغله فى النفوس فالظروف جد متباينة بين أوربا وبلاد الإسلام خلال فترة العصور الوسطى فإذا كانت "نزعة الزمان" كما ذهب" جرونباوم" فى أوربا هى التدين بمعنى" اعتناق

عقيدة والحياة فى ظلها ففرق بعد ذلك كبير بين هذه الصورة السلبية للنزعة الزمان هذه كما كانت فى أوربا تغشيها الجهالة والركود والانقطاع عن الحركة الحية الدافقة ويغشيها قبل ذلك انفصال كامل بين العقيدة والشريعة فرق بين هذا وبين الصورة الإسلامية الحية المتحركة الموارة بالنشاط فى كل ميادين الحياة مع الاتصال الكامل بين العقيدة والشريعة وبين الدين والدولة وقيام الحياة كلها منطلقة من المنهج الربانى للحياة"[1]

"فإذا كانت الصورة الإسلامية هي نزعة الزمان فلماذا لم تكن كذلك فى أوربا؟ وإذا كانت الصورة الأوربية هى التى تمثل نزعة الزمان فإسلام إذن شئ آخر لا علاقة له بتلك النزعة الزمانية التى أراد جرونباوم" أن يربط بها الإسلام مضحيا به كفطرة انسانية.

٦- كذلك نقرر فى الرد على هذه الشبهه أن أوربا قد انشقت عن دينها – أو بدأت تنشق عنه – فى نهاية العصور الوسطى لاسباب محض محلية متمثلة فى استفحال السلطة الكهنوتية وما ارتبط بها من إلغاء للعقل وتغييب له واستغلاق فهم العقيدة التى فرضتها الكنيسة عليهم وغير ذلك مما هو معروف.

إما الإسلام فإن أهله ظلوا متمسكين به إلى يومنا هذا وحتى يرث الله الأرض ومن عليها ومن ثم كانت علاقته بأهله علاقة استمرارية وديمومة ، ومن هنا نقرر فى وضوح أن أى ربط بين الإسلام وبين "نزعة الزمان" أو بينه وبين القرون الوسطي وغير ذل مما يذهب بالقول بأنه فطرة إنسانية ربط باطل لا أساس له.

---

(١) المستشرقون والإسلام ص ٢٠٥ محمد قطب – مكتبة وهبة – سنة ١٩٩٩.

المبحث الثانى

المستشرقون والقول بتطور العقيدة

وهذه شبهة أخري للمستشرقين يدعون فيها الى تطور العقيدة ويقصدون بهذا التطور أمرين :

الأول : تطور العقيدة من خلال الأطوار المختلفة للبشرية بمعني تطورها من رسالة الى أخري وهذا ما صرح به " جب"[١] الاتجاهات الحديثة في الإسلام " حيث عقد فصلا بعنوان " دين العصريين" ركز فيه علي فكرة تطور العقيدة داعيا اليها قائلا " إن الفكر الديني يجب أن يتطور مع تطور مع تطور الفكر البشري ولأن تصور الإلة يختلف بحسب أحوال البشر ويتطور من وضع إلى وضع وإن الإله الذي عبده الناس في القرون الوسطي هو الإله المتعالي المتسامي أما الإله الذي يعبده المحدثون فهو الإله الظاهرة القريب وهذا يعتبر تطورا في العقيدة بما يناسب أحوال الناس " [٢]

الثاني : أما النوع الثاني للتطور العقدي الذي قصده المستشرقون فيتمثل في ا تطور العقيدة داخل الرسالة المحمدية والإسلامية ذاته والعقيدة الإسلامية في نظر هؤلاء لم يأت بها النبي صلي الله عليه وسلم توقيفية لا زيادة فيها أو نقصان وإنماهي عقيدة متطورة تبعا لفترات تطور الأمة الإسلامية يقول " جولد تسيهر "[٣] من العسير أن نستخلص من القرآن نفسه مذهبا عقديا موحدا متجانسا .... ويجب الانتظار الى أن تأتي الأجيال التالية حيث تؤدي الثقافة المشتركة للأفكار المستقاه من النصار والأوائل وغيرهم الى تكوين طائفة محددة عندئذ تتخذ تلك الأفكار شكلا مجسما عن طريق وسائل داخلية في الطائفة نفسها أو بفعل تأثيرات البيئة المحيطة وهذه الأفكار تتقدم

---

(١) جو " هـ أ – رجب " مستشرق انجليزي معاصر كان عضوا بجميع اللغة العربية يراجع المستشرقين والإسلام ص ١٧٤ وكذا د / مصطفي السباعي الاستشراق والمستشرقون مالهم وما عليهم ص ٣٩ ط المكتب الإسلامي .

(٢) جب الاتجاهات الحديثة في الإسلام ص ٦٥ –ط ١٩٤٧

(٣) مستشرق يهودي

بواسطة من يشعرون أنهم مختارون ليكونوا المفسرين لما أتي به النبي وبذلك يسرون ما يكون في التعاليم النبوية من ثغرات " [١]

ما تقدم عرض لشبهة التطور العقدي بشقيها العام والخاص والآن نعرض لرد هذه الشبهة .

• نقد شبهة تطور العقيدة

إذا أتينا إلى نقد هذه الشبهة فإننا نتوجه إلى (جب) بالحديث مبينين له أن رسالات الله إلى خلقه ثمة أصول تجمعها من رسالة إلى رسالة أو من رسول فكافة رسل الله عليهم الصلاة والسلام يجمعهم اتفاق في العقيدة والتشريع والأخلاق وعلي هذا فإن العقيدة الربانية لم تتطور منذ آدم ونوح والنبيين من بعده إلى خاتمة محمد عليه الصلاة والسلام ولا مجال للتطور من فترة إلى فترة ومن عصر إلى عصر ثم يأتي أنبياء الله ورسله ليردوا الناس إلى حياض الحق بعد الفساد والضلال فقديما ظهر الفكر الاسطوري في العقيدة ثم تطور إلى عبادة قوي الطبيعة من ريح ورعد وبرق الى عبادة للأفلاك والكواكب إلى عبادة البشر ثم عبادة الأصنام والحجار أم الدين الالهي الذي جاء به رسل الله وأنبيائه عليهم الصلاة والسلام فهو في العقيدة ومظاهرها دين واحد لا يتغير وان تغيرت الشرائع في فروعها فما من نبي ولا رسول إلا قال مخاطبا قومه " اعبدوا الله مالكم من إله غيره " يقول سبحانه " ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت " وها هو نوح عليه السلام ورد في حقه " ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه إني لكم نذير مبين ، أن لا تعبدوا الا الله " هود ٢٥ : ٢٦ ".

وها هو هود عليه السلام قد جاء فيه " وإلي عاد أخاهم هودا قال اعبدوا الله ما لكم من اله غيره " " هود ٥٠ " وها هو صالح عليه السلام قد تحدث عنه القرآن فقال " وإلي ثمود أخاهم صالحا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره " " هود ٦١ " .

وها هو شعيب عليه السلام قد جاء في شأنه " وإلي مدين أخاهم شعيباً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره " هو ٨٤. وبهذا تحدث جميع أنبياء الله فكيف تتطور

---

(١) جولدتسيهر العقيدة والشريعة في الإسلام ص ٧٧ ، ٧٨ نقلا عن فضيلة الشيخ محمد الغزالي دفاع عن العقيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين ص ٩٥ ط دار الكتب الإسلامية .

هذه العقيدة وهي حقيقة أزلية غير قابلة للتغير هذا فيما يتعلق بالرد علي " جب " أما إذا أتينا إلى " جولدتسيهر " فإننا نقول في الرد عليه .

١- إن أي تطور في العقيدة داخل الدين الدين بعد أن تركنا النبي صلي الله عليه وسلم بالنسبة لها علي المحجة البيضاء إنما هو ردة وشرك ومن ثم فلا يجوز بأي حال من الأحوال أن يجتهد الإنسان في أمور العقيدة ويقول فيها قولا علي خلاف ما أنزله الله في كتابه وذكره النبي صلي الله عليه وسلم في سنته .

٢- إن التطور في العقيدة داخل الدين الإسلامي معناه : اجتهاد إنساني بعقله وتدخله بالرأي فيها وهذا أمر لم يكن مسموح به للنبي ﷺوهو من مزل عليه الوحي وشرعت علي لسانه العقائد يقول سبحانه وتعالي " ولو تقول سبحانه وتعالي " ولو علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين فما منكم من احد عنه حاجزين " " الحاقة ٤٤-٤٧ " وإذا كان قد ورد هذا في حق النبي صلي الله عليه وسلم وهو من نزل الوحي عليه فكيف بغيره .

٣- أن دعوى تطور العقيدة إنما هي فتح لباب الإشراك بالله وإنكار ثوابت الدين إذ تحت هذا المسمي يمكن أن تكون الدعوة إلى تعدد الآلهة ويقال بأن هذا تطور أو إنكار البعث ويقال أيضا تطورا إذن فالأولي بنا إغلاق هذا الباب بعد أن ثبتت العقيدة بصورة توقيفية يقينية لا شك فيها أو ريب أو أخذ فيها أو رد ومن هنا نقول إن العقائد في ديننا لا تتحمل زيادة أو نقص ولا تخضع لتطور يتقدم بها إلى أمام أو يتقهقر بها إلى الوراء ولا مجال لفكر إنساني يضفي عليها شيئا من عنده أو يختصر منها شيئا بجهده إن أصول الإيمان وأركان العبادات أتت من لدن رب العالمين جل شأنه وقد بقيت الى يومنا هذا كما كانت يوم نزلت علي النبي ﷺ . وفيما يتصل بالعقائد الإسلامية ايضا لم يزعم أحد ان حقائقها تغيرت ادني تغير في هذا القرن عما كانت عليه في القرن الأول فما آمن به الرسول ﷺ وصحابته الكرام هو عين ما نحن مكلفون بالإيمان به الآن وكما يقول فضيلة الشيخ الغزالي " لو افترضنا أن بضعة عشر قرنا محيت من الزمن بأشخاصها وآرائها ولم يبق إلا قرننا هذا والجيل الأول من المسلمين فإن العقائد التي بين أيدينا ما يضيرها مثقال ذرة اسم

شخص حذف أو نسيان رأي قيل خلال هذا الدهر الطويل فالقرآن الذي تم أيام الرسول ﷺ هو وحده مصدر العقائد وموطن اليقين " (١)

٤- ومما يعين علي دحض هذه الشبهة التي افتراها " جولد تسيهر " اسلوب القرآن ذاته في تقرير العقائد إذ انه يمتاز بالوضوح المطلق والموافقة لبدهيات العقول والبعد عن المتناقضات والشبهات ففي توحيد الله وجدنا قول الله سبحانه والاهكم إله واحد " البقرة ١٦٣ وفي عقيدة البعث والمعاد وجدنا قول الله " الله لا إله إلا هو ليجمعكم الى يوم القيامة لا ريب فيه ومن أصدق من الله حديثا " النساء ٨٧ " وفي انفراده سبحانه بالإيجاد والتدبير يقول " الله خالق كل شئ وهو علي كل شئ وكيل له مقاليد السموات والأرض " الزمر ٦٢، ٦٣ وفي نفي الشركاء والأولاد عن الله كانت العبارات القرآنية الصريحة الدالة علي ذلك " ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذن لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم علي بعض سبحان الله عما يصفون " المؤمنون ٩١ ، وفي العلم الالهي وأحاطته بأدق شئون الخلق نجد قوله سبحانه " وعند مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو "ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين "الأنعان٥٩".

فما أعجب أن يتعامي امرؤ ما عن خصائص دين يقوم علي الوضوح البالغ وان يفتري حديثا يحاول من خلاله ايهام ضعاف العقول بأن الإسلام لم يأت بعقيدة واحدة كاملة بل إن العقائد الإسلامية هي صنيعة الأجيال ألا فليهزأ أولوا الألباب والنهي عن هذه الأكاذيب والأباطيل ولعلم كل إنسان أن للإسلام عقيدة لا منبع لها إلا القرآن الذي تم نزوله بإجماع الانس والجن في أيام النبيﷺ ولم يتبدل منه حرف مع مرور الأزمات وتقادم العصور .

---

(١) دفاع عن العقيدة والشريعة ص ٩٤

المبحث الثالث

شبهات المستشرقين حول عقيدة التوحيد

إن التوحيد هو جوهر الرسالات الإلهية ولو تحافظ علي نقاء وصفاء هذا الجوهر سوي عقيدة الإسلام لذا لم تسلم هذه العقيدة من غمز ولمز المستشرقين في مدوناتهم وصحائفهم فمن هؤلاء المستشرقين الدكتور " ولهلهم رودلف" [١]الذي يري أن التوحيد ليس هو عماد العقيدة الإسلامية والمقدم فيها يقول رودلف "إن التوحيد ليس أهم ما جاء به محمد صلي الله عليه وسلم ولكن أهم ما جاء به هو وصف محاكمة الدار الاخرة" [٢]

ويأتيبعد ذلك المستشرق " جربمة "[٣] ليلقي الشبه حول العقيدة الإسلامية فيعمد الى عقيدة التوحيد التي هي عماد الدين الإسلامي ليشتكك فيها مضفيا عليها بعدا عقليا إنسانيا من حيث كونها في تظرة " فكرة " وهذه الفكرة استفادها النبي ﷺ من المسيحية التي كان لها بقايا في جنوب الجزيرة العربية يقول جريمة " إن فكرة التوحيد التي نادي بها محمد ﷺ استقاها من جنوب الجزيرة حيث كانت هناك مسيحية وسط بين الديانتين الوثنية واليهودية " [٤].

ويأتي بعد ذلك " مونتغومري وات [٥] ليلقي بشبهه حول عقيدة التوحيد مبينا أن النبي ﷺ لم يكن غيورا عليها وأنه في نظرته للأصنام ذو ازدواجية في المعايير إذ أنه عليه الصلاة والسلام لم يهاجم عبادة الأصنام القابعة في الكعبة وإنما إنصب هجومه علي عباد الأصنام في المعابد المترامية في ضواحي مكة ولهذا يري " مونتغومري " أن معارضة مكة للإسلام لم يكن سببها الاساسي " الخوف من أنه إذا دان أهل مكة

---

(١) مستشرق يهودي ألماني

(٢) رودلف : صلة القرآن باليهودية والمسيحية ص ١٧ ترجمة عصام الدين حقني ناصق ط دار الطيعة بيروت .

(٣) مستشرق ألماني

(٤) جريمة – محمد – نقلا عن د / عبد الجليل شلبي دار الشرق ور استشراقية ص ٩٤ ط .

(٥) مستشرق بريطاني معاصر

بالإسلام وتركوا الالحاد كف البدو عن زيارة الكعبة وحل الخراب بذلك في تجارة مكة وهذا السبب غير مرض ، فسوف نحاول عبثا العثور في القرآن علي أي أثر لمهاجمة عبادة الأصنام في الكعبة .

ولقد رأينا أن الهجوم علي عبادة الأصنام كان في المعابد الكائنة في ضواحي مكة ولم يكن لهذه المعابد أهمية تجعل التخلي عنها يهدد التجارة المكية عامة [١]

هذا جانب من شبه المستشرقين حول عقيدة التوحيد ولآن نعرض بمشيئة الله تعالي للرد عليها .

*** نقد الشبهة**

فيها تقدم عرضنا لجانب من شبه المستشرقين حول عقيدة التوحيد ويطيب لنا الآن أن نقف علي جانب من الرد والنقد لهذه الشبه كل علي حده وإن كان في الرد والنقد لكل شبهه مدخل في الرد علي الأخري.

أولا: الرد علي ولهلهم رودلف "

سبق أن وقفنا علي ما زعمه رودلف أن التوحيد ليس هو أهم ما جاء به النبي ﷺ وهذا الزعم منه حديث خرافة لعدد من لأمور منها :

١- أن التوحيد هو جوهر الدين الإسلامي خاصة وجوهر الرسالات الإلهية عامة ومن ثم فهو الدعامة الأولي في كل رسالة من الرسالات .

٢- كذلك فإن عقيدة التوحيد هي أهم ما دعي إليه النبي ﷺ لأن حالة العرب خاصة والعالم عامة حينئذ أنهم غارقون في بحار الشرك والوثنية لهذا ناسب أن تكون هذه العقيدة هي أهم ما جاء به النبي صلي الله عليه وسلم .

٣- أن الرسالات الإلهية عن أسباب ظهورها كونها علاج لمراض ودواء لعلل والعلة المستشرقة في مكة حينئذ هي عبادة الأوثان والإشراك بالله تعالي .

٤- ومما يدل علي تقديم هذه العقيدة في الأهمية أن كثيرا من علماء العقيدة في الإسلام يرون أن عقيدة الوحدانية هي المقصد الاسمي المقدم علي عقيدة

---

(١) مونتغمري وات محمد في مكة ٢١٣ ،٢١٤ تج شعبان بركات ط المكتبة المصرية بيروت .

الالهي في الخطاب القرآني نظرا لحالة العرب في ذلك العصر حيث آمنوا بوجود الله تعالي وكفروا بوحدانيته .

٥- كذلك مما يدل علي تقديم هذه العقيدة في الأهمية تعدد الآيات التي تناولتها بالحديث والبرهنة والاستدلال في القرآن الكريم .

٦- كذلك أيضا مما يدل علي تقديم هذه العقيدة في الأهمية أنها بانضمامها إلى عقيدة الوجود الالهي مسوغ لإثبات غيرها من العقائد الأخرى .

٧- كذلك ينبغي أن تعي الاذهان أن الإسلام قبل كل شي يقوم في بنائه علي صحة العقيدة ، والعقيدة التي دعا إليها الإسلام هي أن خالق الكون والمستحق للعبادة واحد لا شريك له وإنه لمن المنطق ومطابقة الأمور لطبائعها أن يقرر الإسلام هذه العقيدة أولا ثم يأتي بعد ذلك بالعبادات والتشريع فبغير العقيدة تكون العبارات لمن لا يستحقها وتثبيتها لهذه العقيدة وتعليما للناس بما ستكون عليه عاقبة كل واحد منهم تحدث القرآن عن الجنة والنار والحساب وهذا من متممات العقيدة [1]

هذا فيما يتعلق بجانب من الرد علي " ولهلهم رودلف "

ثانيا : الرد علي " جريمة "

أما بالنسبة لما زعمه المستشرق الالماني " كون النبيﷺ استمد فكرة التوحيد علي حد تعبيره من المسيحية الكائنة في حنون الجزيرة العربية والتي كانت وسطا بين الوثنية واليهودية فإننا نقول في الرد عليه .

١- أن التوحيد ليس " فكرة " كما زعم " جريمة " لأن كونه بفكرة " نجد يد لهذه العقيدة عن جانبها الالهي وتكون حينئذ أمر قد اخترعه النبي ﷺ من بنات أفكاره ومن ثم فلم تكون هذه العقيدة وحي من الله تعالي في حين أن عقيدة التوحيد هي وحي من الله تعالي أوحاه الى نبيه عليه الصلاة والسلام يدل علي ذلك قول سبحانه " قل إنما أنا بشر مثلكم يوحي إلى إنما الاهكم إله واحد " الكهف ١١٠ "

(١) يراجع صور استشراقية ص ٧٠ بتصرف

٢- كذلك نقول " لجريمة " أن عقيدة التوحيد لم يستمدها النبي ﷺ وبهذا تبين في صراحة ووضوح مصدرها ومنشأها .

أ- أنها وحي من الله كما صرح القرآن الكريم علي لسان النبي ﷺ وبهذا تبين في صراحة ووضوح مصدرها ومنشأها.

ب- أنالمسيحية التي يقصدها " جريمة " عمادها الشرك والتثليث والتصلب للإله والنبوة فكيف يستمد منها التوحيد القائم علي التنزيه والمخالف لما تقدم .

جـ- وإذا كانت المسيحية علي حد تعبير جريمة قد استمد النبي ﷺ التوحيد منها فلماذا هاجمها فيما أنزل عليه وحكم علي معتنقيها من المثلثين بالكفر والضلال .

د- أن جريمة قد زعم أن المسيحية التي استمد منها النبي ﷺ التوحيد وسط بين الوثنية واليهودية إذا فالمسيحية التي يقصدها قد جمعت بين الوثنية والتجسيم وكلاهما أمران باطلان لا يليقان بالله تعالي فكيف يستمد التوحيد الحق المناقض لهما منهما .

هـ - كذلك أيضا كيف يستمد التوحيد من المسيحية التي هي وسط بين الوثنية والتجسيم في حين أن القرآن الداعي إلى التوحيد يحاربهما بلا رحمة أو هوادة لكونهما أمران يذهبان ببهاء التوحيد ولا يليقان بالله تعالي وهذا مما تنبه القرآن في كثير من آياته .

هذا وقد اعترف كثير من المستشرقين بزيف هذه الدعوي التي ذكرها " جريمة " فها هو كارليل في كتاب " الأبطال وعبادة الأبطال " يبين مابين تثليث النصرانية وعقيدة التوحيد من تناقض يحيل أن تكون الأولي أساسا لكتابته فيقول " إن الناس كانوا يعظمون البطل ويعظمون أمه واباه فجاءت عقيدة التثليث بهذا وظل الناس يخلعون علي الابطال صفات الآلهة حتي كان النبي محمد ﷺ فقضي علي هذه العقيدة "[1] ويقول الدكتور ارنولد " إن ديانة التوحيد هي أرقي الديانات [2]البشرية وهو قول يردده الكثيرون من رجال الديانات والأنثروبولوجي أمثال جيمس مريزر ، وبتلر .

(١) الابطال وعبادة البطال لكاريل نقلا عن د / عبد الجيل شلبي رد مفتريات المبشرين علي الإسلام ص ٢٥١

(٢) لا نوافق علي إطلاق لفظ الديانة علي التوحيد لأن الديانة الصق بالعقائد الباطنة .

ذلك أن عقيدة التثليث أو التشبيه إنما هي بقايا من الديانات البدائية التي كانت تدين بألهة عديدة لكل شئ إله [١]

ثالثا: الرد علي مونتغومري وات:

لقد مر بنا ما زعمه " وات " من أن الرسول ﷺ لم يهاجم يوما عبادة الأصنام في الكعبة وإنما انصب هجومه علي عبادة الأصنام المترامية في ضواحي مكة ونقول له .

(١) لقد كانت دعوة الرسول ﷺ منذ لحظات إعلانها الأولي وحتى دخول مكة وتحطيم الأصنام فيها وفي جوف الكعبة صيحة متواصلة لا مكان فيها للازدواجية – ضد الوثنية وصراعا مكشوفا ضد الأصنام أيا كانت في مكة أم خارجها .

(٢) إن هذا التجزؤ الذي يمارسه وات " أسوة بكثير من المستشرقين مرفوض تاريخيا وعقديا وذلك أإن الحركة الإسلامية حركة توحيد مطلق ينتفي معها منذ لحظاتها الأولي أي توجه وثني وقد أدركت الزعامة القرشية هذا جيدا ولذا فإنها كانت مستعدة للتنازل عن أي شئ لمنح الرسول ﷺ كل ما يريده إلا هذه : (شهادة أن لا إله إلا الله) ، وكان الرسول ﷺ في المقابل مستعد أن يدخل في حوار مع الزعامة الوثنية في كل شئ إلا في هذه : (شهادة أن لا إله إلا الله) وما تعنيه بالضرورة من رفض مطلق للوثنية أو عبادة الأصنام"[٢]

ومما يعين علي دحض هذه الشبهه واقع الروايات المختلفة التي تثبت ما يناقض ما ذكره وات ومن ذلك رواية البلاذري التي يشير فيها الى اشتداد معارضة كفار مكة للدعوة بعد تصاعد الحملات الشديدة التي شنها رسول الله ﷺ ضد أوثانهم وآلهتهم . [٣] كذلك مما يبطل ما ذكره " وات " رواية الطبري التي ورد فيها أن المشركين اخذوا يوما بمجامع رداء الرسول ﷺ وقالوا له أنت الذي قلت كذا في عيب آلهتنا وديننا فما

(١) رد مفتريات المبشرين علي الإسلام ص ٢٥١

(٢) د/ عماد الدين خليل المستشرقون والسيرة النبوية ص ٥٠ ط دار الثقافة .

(٣) البلاذري انساب الاشراف جـ١ صـ١١٥ -١١٦ تح محمد حميد الله ط دار المعارف .

كان جوابه إلا أن قال لهم " نعم أن الذي أقول ذلك " [١]كذلك ما أورده ابن هشام عن أمر ذلك الاجتماع الذي عقده زعماء قريش وبعثوا إلى الرسول ﷺ ليكلموه وقالوا له إنا والله ما نعلم رجلا من العرب أدخل علي قومه مثل ما أدخلت علي قومك لقد شتمت الآباء وعبت الدين وشتمت الألهة وسفهت الأحلام ومزقت الجماعة فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث نطلب به مالا جمعنا لك من أموالنا حتي تكون أكثرنا مالا وإن كنت انما تطلب اموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم ولكن الله بعثني اليكم رسولا فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة وإن تردوه علي أصبر لأمر الله حتي يحكم الله بيني وبينكم [٢] ويعين علي تأييد ما تقدم ما ذكه ابن سعد في طبقاته من ان وفدا من زعماء قريش قدموا الي ابي طالب ليلتمسوا إليه أن يكف ابن أخيه فاستدعاه وقال له بابن أخب هؤلاء عمومتك واشراف قومك وقد أرادوا أن ينصفوك فقال رسول الله ﷺ قولوا اسمع قالوا تدعنا وألهتنا وندعك وإلهك قال أبوطالب قد أنصفك القول فأقبل منهم فقال رسول الله ﷺ أرأيتم إن أعطيتكم هذه هل أنتم معطي كلمة إن أنتم تكلمتم بما ملكتم العرب ودانت لكم بها العجم فقال ابو جهل إن هذه كلمة مربحة نعم وابيك لنقولنها وعشر مثالها فقال الرسول ﷺقولوا لا إله إلا الله فشمئذوا ونفروا منها وغضبوا وقاموا وهم يقولون اصبروا علي ألهتكم أن هذا الشي يراد [٣]

من هذه الروايات وغيرها ندرك بيقين أن النبي ﷺ الله عليه وسلم لم يعادون عبادة الأصنام يوما وان موقفه من كل شي يخدش التوحيد موقف واحد غير مجزء .

(١) الطبري تاريخ الرسل والملوك تح محمد أبو الفضل أبراهيم ج ٢ صـ ٣٣٢ -٣٣٣

(٢) ابن هشام تهذيب السيرة ص ٦٤ تح عبد السلام هارون ط المؤسسة العربية الحديثة

(٣) بم سعد : الطبقات الكبري جـ ٣٥١ ط تح طه عبد الرؤف سعد ط دار الغد

المبحث الرابع

المستشرقون والوحي

وفي حديث المستشرقين عن الوحي افتراء عظيم وإفصاح عن نفوس مريضة زينب لهم سواء أعمالهم فرأوها حسنا إذ أنهم جعلوا وحي الله المعصوم من باب حديث النفس وهوس المضي وتخيل الشاردين وأحرم النائمين ولعل هذا ما يفصح عنه حديث كثير من المستشرقين عن رسول الله صلي الله عليه وسلم وعما أنزل عليه من وحي من قبل ربه ومولاه .

يقول " اميل در مجيم "[1]ظل محمد في غمار افكاره حتي سنة ٦٤٠ م فكان اطرابة النفس قد بلغ غايته ولم يعد يحتمل أو يري قومه يعظمون الجن والأشباح ويلهمون الحقيقة العليا . وفي غار حراء استغرق في تأمله حتي صار لا يفرق جيدا بين تعاقب الليل والنهار وبين البقظة والنوم فكان يخيل إليه انه يسمع اصوت الحجارة وانها تحييه باسم رسول الله وبلغ من هذه الحالة أنه كان يخر مغشيا عليه وكان يري في منامه شخصا هائلا صافا قدميه في افق السماء باسطا اليه يديه واصبح بعد ستة أشهر نحيفا مهزولا خائر القوي مضطرب الخطي أشعث الشعر واللحية .؟ [2]

ومن المستشرقين الذيم أثاروا شبهة الوحي النفسي ايضا " جوستاف لوبون"[3] الذي الذي يقول " إن محمداً ﷺ كان مصابا بالصرع وإذا عددت هوس محمد ﷺ ككل مفتون وجدته حصيفا سليم الفكر ويجب عد محمد ﷺ من فصيلة المتهوسين من الناحية العلمية فأكبر مؤسسي الديانات ولا أهمية لذلك فلم يكن ذو المزاج البارد من المفكرين هم الذين ينشئون الديانات ويقودون الناس وإنما آلُ الهوس هم الذين مثلوا هذا

(١) مستشرق فرنسي ولد عام ١٨٤١ وتوفي عام ١٩٣١ م يراجع أ/أمد حامد الإسلام ورسوله في فكر هؤلاء صـــ ٥٩ ط دار الشعب .

(٢) صور استشراقية صـــ ٤٢

(٣) مستشرق فرنسي ولدعام ١٨٤١ وتوفي عام ١٩٣١ م يراجع أ / أحمد حامد الإسلام ورسوله في فكر هؤلاء صـــ ٥٩ ط دار الشعب

الدور ... وهدموا الدول وأثاروا الجميع وقادوا البشر ولو كان العقل لا الهوس هو الذي يسود العالم لكان للتاريخ مجراه "[1]

هكذا تحدث المستشرقون مصورين رسول الله ﷺ وما يأتية من وحي الهي بعبارات هي أرب للخيال والصق بالمجانين والآن نشرع بإذن الله تعالي في الرد علي هذه الشبهة .

* رد الشبهة

١- إن المتأمل في الكلام السابق يجد تناقضا لا يقول به عاقل إذ وصف " جوستاف لوبون " النبي ﷺ بالهوس ثم يصفه بعد ذلك بالحصافة وسلامة الفكر " فإني لمهووس بهذه الصفات التي تثبت له قوة العقل ؟!

٢- وبالنظر فيما تقدم من حديث في هذه الشبهة نجد أن المستشرقين فيها جعلوا وحي الله تعالي المعصوم من قبل هوس المرضي وترهات المجانين وأحلام النائمين وغير ذلك مما يرفع الثقة عنه .

٣- إن حالات الهوس والاضطراب النفسي والأحلام وغير ذلك مما فسر به المستشرقون وحي الله وفي ذلك كل هذا أعراض بشرية يمكن أن تأتي لغير النبي ﷺ ومن ثم يمكن معارضته فيما أتي به بيد أنه ﷺ دعاهم الى المعارضة والتحدي مع استمرار ذلك التحدي فعجز العرب وعجز غيرهم

٤- كذلك أيضا لو أن أحدا كان آمر اناهيا بمقتضي عقله لما انصاع له الناس فما بالنا بمن كان المر والنهي والتشريع لديه من قبل رؤي يراها ، وخيال مريض مسيطر عليه وخيال ألم به ، ومس وصرع يتخبطه هل ينصاع له الناس ؟!،إنه في النفور منه اشد من الأول وهذا ما لم يحدث للنبي ﷺ الذي انعقد له التفاف الناس من حوله مع محبتهم له .

٥- إن هذه الشبهة في مضمونها تنسب الوحي الى نفس النبي ﷺ وذاتيته وتقطعه عن جانب الله سبحانه فلماذا لم يصرح النبي ﷺ بذلك مع أن هذا التصريح أدعي تثبيت مكانته بين الناس .

(١)

٦- كذلك يجد المتأمل فيها أوحي الى النبي ﷺ قصصا من أبناء السابقين سيقت علي وجهها الصحيح فهل مصدر هذا اعمال الفكر ودفة الفراسة ؟! فضلا عن الخيال والهوس والخيال إن كل هذا لا يمكن القول به بالنسبة لحقائق التاريخ وإنما ينبغي أن يكون المصدر هي رواية المعاصرة وهذا منفي في حق النبي ﷺ وسلم وغيره من أصحاب القرون اللاحقة ولا يثبت هذا إلا في حق الله سبحانه رب الزمان ورب المكان ومقلب الايام ولذلك كان قول الله تعالي لنبية ﷺ وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم "آل عمران٤٤ وقوله " تلك من ابناء الغيب نوحيها اليك ما كنت تعليها أنت ولا قومكمن قبل هذا ... "هود ٤٩ " ويلحق بهذا ما في القرآن من حساب وأرقام مقترنة بأمية ﷺ الله عليه وسلم لا سبيل للعلم بها إلا من قبل الله تعالي فثبت أنه سبحانه مصدر الوحي ومنزله وليس نفس النبي ﷺ أو خياله .

٧- أيضا مما يعين علي دحض شبهة الوحي النفسي وجود آيات العتاب للرسولﷺ في القرآن الكريم ونزول الوحي علي خلاف ما يراه صلي الله عليه وسلم فلو كان مرد الوحي اى ذاتيته عليه الصلاة والسلام لما وجد مثل هذا في كتاب الله أما وقد وجد هذه الآيات في كتاب الله تعالي والتي لا تقدح في عصمته عليه الصلاة والسلام . فقد دل هذا علي أنها وحي من قبل الله سبحانه لا دخل لذاتية النبي ﷺ فيها .

٨- وإذا أتينا الى رأي الطب لنبين حقيقة ما وصف به المستشرقون رسول ﷺ من اصابته باضطراب نفسي ، وهوس ، وصرع " وغير ذلك فإننا نستشهد هنا بما قاله أ.د يحي طاهر أستاذ الأمراض العصبية بكلية الطب جامعة القاهرة مبينا حقيقة الصرع والهوس والأحلام " إن الهلاوس والأحلام التي تمر بذهن المريض بالصرع ما هي إلا اجزاء من ذكريات قديمة نبهتها الذاكرة ولا يمكن للمريض بالصرع أن يؤلف أثناء النوبة شيئا ، كذلك لا سمكن أن تتحسن لغة المريض بالصرع فهو ارتباك مفاجئ في كهرباء المخ ووظيفته ، كما أن الأحلام والهلاوس التي يشعر بها المريض في أثناء النوبات الصرعية تتكرر

بعضها أو كلها بنفس الشكل بتكرار النوبات كما أن المريض لا يمكنه أن يصفها وصفا دقيقا " (١).

وإذا كان هذا هو التفسير العلمي لمثل هذه الأمراض فكيف يصدق هذا التفسير علي القرآن الكريم المشتمل علي التشريعات والآداب والقصص والعلوم وغير ذلك وكيف يصدق عليه أيضا نزل بلغة عربية فصحي لم يتعلمها النبي ﷺ قبل الرسالة وأن يجتمع ما تقدم مع آيات بينات واضحة محددة متممة بعضها بعضا متضمة في نحواها كل ما يهم الناس في شئون دينهم ودنياهم ، وفي النهاية نقر أن حديث المستشرقين السابق عن الوحي الإلهي إنما هو حديث أناس اعتمدوا علي خيالهم ولم تعنهم المراجع التي توثق ما يقولون فاستباحوا لأنفسهم أن يخلطوا الحقائق بالخلالات علي نحو ما يفعل الروائيون يكون وفقا لظنونهم لما يجب أن يكون وليست هذه طريقة بحث سليم وما ذكروه من أن النبي ﷺ كان يصرع ويظل ملقي بين الجبال فاقدا الوعي أو أنه بلغ من اضرابه أنه لا يفرق جيدا بين تعاقب الليل والنهار وأنه هزل وشحب لونه وخارق قواه فهذه كلها أقوال ليس لها ما يسندها من صادق الحديث أو صحيح الروايات فضلا عن أن واقع التاريخ يكذبها وذلك لأن الذي " يصاب بمثل هذا الانهيار الجسدي والعصبي لا يقوي علي كل هذا النضال المرير الطويل في سبيل نشر دعوته ولا يتمتع بمثل هذه الحصافة في الراي وسداد التفكير ومحمد ﷺ منذ أمرة الله تعالي أنم يصدع بما أمر به حتي أخر حياته كان في جهاد موفق مستمر وكان يمتاز بقوة التفكير وحسن التدبر وقوة الذاكرة وسعة الحيلة وهذا مما شهد به المستشرقون أنفسهم أفكانت هذه صفات رجل مضطرب الأعصاب مهزول البدن ، أو يقوي مثله بعد هذه الأوصاف والأمراض علي سياسة محمد ﷺ الحكيمة وتخطيطاته الحربية وتنظيماته الاجتماعية فإذا كان متهما بأنه استقي كل هذه المعلومات من غيره أفيقوي ايضا مثل هذا الشخص المضطرب البدن والأعصاب علي الدرس والتحصيل فضلا عن الموازنة بين اشتات الديانات وإجاد الاختيار " (٢)

---

(١) د/ حامد زهران الصحة النفسية والعلاج النفس صـــ ٤٦٧، ٤٦٨ ط دار العالم العربي .

(٢) صور استشراقية صـــ٤٣

والواقع أن هذه الشبهة مستغربة من المستشرقين لانها صدرت ن أناس عرفوا الوحي وقد نزل علي أنبيائهم فلماذا لم يوجدوا مثل هذه الشبه لديهم .

المبحث الخامس

المستشرقون وعالمية الرسالة

في هذا المبحث نتناول بمشيئة الله تعالي موقف المستشرقين من موضوع " عالمية الإسلام من خلال ما أورده : مروبرجر " [١] من شبهة له حول هذا الموضوع يزعم فيها أن الدين الإسلامي دين محلي خوطب به العرب فقط وآية ذلك وعلامته اتخاذه من جزيرة العرب قاعدة لانطلاقه بقول " مروبيرجر " إن الإسلام كان مقصودا به العرب فقط والدليل علي ذلك انطلاق من الجزيرة العربية . [٢]

نقد هذه الشبهة

بعد أن أطلعنا علي هذه الشبهة التي أوردها " مروبرجر " حول عالمية الإسلام فإننا عند التأمل فهيا نجدها لا تثبت أمام حديث العقل والمنطق وذلك لعدد من الأمور منها.

١- أن المتتبع لحديث القرآن الكريم وتشريعاته يجدها صالحة لكل زمان ومكان سواء في قواعدها العامة أو في أحكامها الجزئية القابلة للإجتهاد تبعا للحاجة والمصلحة وهذا إن دل علي شئ فإنما يدل علي عالمية الإسلامي .

٢- إطلاق الخطاب القرآني في كثير من آياته يدل ايضا علي عالمية الإسلام فكثيرا ما صدرت آيات القرآن الكريم بقول الله " يا أيها الناس " ومن جملة هذه الآيات آية سورة الحجرات التي صدرت بهذا النداء المقترن باقرار مبدأ الأخوة الإنسانية مما يفيد معه عالمية هذا الدين والتي يقول الله تعالي فيها " **يا أيها الناس إن خلقناكم من ذكر وأنثي وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعرفوا ....**" (الحجرات ١٣). كذلك وجد هذا النداء وقد اقترن بالحديث عن وحدة الاصل الإنساني في قول الله تعالي " يا ايها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها " (النساء ١)

---

(١) عالم اجتماع أمريكي يهودي " يراجع المستشرقون والإسلام " صـ ٢٦٥ .

(٢) يراجع مروبرجر ، العالم العربي صـ٢٣٣ ط بيروت ١٩٦٤

٣- ونناقش " مروبرجر " في شبهته السابقة فنقول له من يا تري صاحب القصد بأن يكون الإسلام خاصا بالأمة العربية ما الله سبحانه وتعالي منزل هذا الدين فقد قال في سورة مكية من أوائل ما نزل في مكة والمسلمون في اشد حالات استضعافهم " إن هو إلا ذكر للعامين ، لمن شاء منكم أن يستقيم " التكوير ٢٧-٢٨ وقل جل جلاله " وما ارسلناك إلا رحمة للعالمين " الانبياء ١٠٧" وكذلك نجد قوله تعالي " تبارك الذي نزل الفرقان علي عبده ليكون للعالمين نذيرا " الفرقان١) وقوله تعالي " وما أرسلناك الى كافة للناس ونذيرا" سبأ ٢٨ بلفظ الإيجاب الكلي الذي يفيد عموم الناس .

وأما الرسول ﷺ فيقول " وكان كل نبي يبعث الى قومه خاصة وبعثت الى الناش عامة"[١] ويقول " ليبلغن هذا الدين ما بلغ الليل والنهار ولا يترك الله بيت مدر ولا ولد إلا أدخله الله هذا الدين يعز عزيز أو بذل ذليل ، عزا يعز الله به الإسلام وذلا بذل به الكفر " [٢]هذا بالنسبة للجزء الأول من الشبهة أما بالنسبة للجزء الثاني منها والذي زعم فيه " أن انطلاق الإسلام من جزيرة العرب دليل هذا الدين " فإننا نقول إنه لابد لكل رسالة من قاعدة تنطلق ومهما كانت عالميتها وانتشارها فإنها تبدأ من القاعدة أولا وحين تستقر فيها وتتمكن تاخذ في الانتشار وانطلاقا منها الى شتي بقاع الأرض وما وجدت دعوة في التاريخ بأسرة انتشرت فيه وسائل الاتصال انتشارا لا مثيل له واصبح العالم كما يقول يقولون – كالقرية الوحدة .

ومع كل هذا لا غني عن قواعد تنطلق منها الدعوات المختلفة التي يموج فيها العالم " والقاعدة التي اختارها الله سبحانه وتعالي لانطلاق هذه الدعوة كانت هي الجزيرة العربية لامور فيها يعلمها الله سبحانه وتعالي " ويعالم أنها اصلح مكان لها " الله اعلم حيث يجعل رسالته "(الأنعام ١٢٤) ، ولكن هذا لا يعني أن هذا الدين قصد به العرب وحدهم أو أنه دين عربي بمعني أنه نابع من البيئة العربية ومفصل علي حجمها فقد

---

(١) روای الأمام مسلم في المساجد ومواضع الصلاة رقم ٨١٠ وكذا الامام البخاري باب قول النبي ﷺ وجعلت لي الأرض مسجدا ٤١٩ وكذا الإمام النسائي السنن ٤٢٩ والدرامي ٤٢٩ كتاب الصلاة والامام أحمد ١٣٧٥٤

(٢) رواه الإمام أحمد مسند الشاميين رقم ١٦٣٤٤

جاء هذا الدين بما لم يكن في البيئة العربة ولا في بيئة الأرض كلها يومئذ فقد جاء والعرب لا يجتمعون في (أمه) علي الرغم من وحدة اللغة ووحدة الأرض ووحدة الأعراف ووحدة المعتقدات الا انهم قبائل متناحرة متنافسة متنابذة فألف بين قلوبهم فتكونت منهم لاول مرة في تاريخهم (أمة) بل أخرج الله من هذه القبائل المتناحرة لا مجرد امه من الامم بل " خير أمه أخرجت للناس " في التاريخ كله بشهادة مخرجها الى الوجود سبحانه وكان الشرك هو دين الجزيرة العربية ، وكان داخلها ديانات أخري سواء ما كان منها من صناعة البشر أو ذا اصل سماوي فحرف علي يد البشر فجاء الإسلام بعقيدة صافية هي التوحيد لا يشوبها شائبة من شرك وكان الحكام في كل الأرض ذوي قداسة تقدم لهم شعائر العبادة كما كانت القبيلة ذاتها وثنا معبودا فيالجزيرة العربية

فجاء الإسلام فنزع القداسة عن كل أحد إلا الله وحدة سبحانه وتعالي وجعل الاتباع في الرشد وحدة وحرم الإتباع في الغي وكانت المرأة في الجزيرة العربية كما مهملا وشيئا من الاشياء فرفعها الإسلام الى مقام الإنسان وقال سبحانه "فاستجاب لهم ربهم أني لا اضيه عمل عامل منكم من ذكر أو أنثي بعضكم من بعض آل عمران ١٩٥ وقال " يا ايها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها " النساء وجاء الإسلام والرقيق في الأرض كلها " شئ" يتصرف فيه مالكه بما يشاء فرد الإسلام له انسانيته المفقودة وجفف منابع الرق كلها الا منبعا واحد هو رق الحرب علي العقيدة وحتي هذا فتح له باب التحرير بالعتق والمكاتبة سابقا بذلك نظم الأرض كلها [١] وبهذا نعلم أن الإسلام لم يكن دينا عربيا بمعني أنه نابع من العرب ومفصل عليهم كما زعم "مروبرجر " وغيره من المستشرقين إنما هو دين للبشرية كلها نزل بلسان القاعدة التي اختارها الله لتكون منطقا الى كل الأرض وتحققت عالميتة في واقع التاريخ فبلغ معتنقوه من غير العرب أضعاف الشعب العربي كله من المشرق الى المغرب وقد أقر بما تقدم كثير من المستشرقين منهم " جوزيف شافت " [٢]الذي يقول لا شك ان العالم

(١) الاسلام والمستشرقون صـ ٢٨٨

(٢) مفكر الماني توفي عام ١٩٦٩ .

سيذكر ذات يوم كلماتي بأن الإسلام سيصبح المظلة الحقيقية للعالم المتحد ..... فقط علي العالم أن يعرف الإسلام الحقيقي من مناهلة الحقيقية حيث القرآن الكريم الذي أنزلة الله ليكون طريقا وشريعة للعالم كله . [١] وبهذا تنتفي شبهة مروبرجر " حول عالمية الإسلام بالمنطق وبشهادة مفكري الغرب أنفسهم .

المبحث السادس

المستشرقون والمنجزات المادية

لقد كان لبعض المستشرقين موقف يحفه الانكار من المعجزات الحسية التي ايد الله سبحانه وتعالي بها نبيه محمداً ﷺ فمن هؤلاء " واشنطن إرفنج " الذي زعم أن المعجزات الحسية أمر مكذوب نسبه المسلمون الى نبيهم عليه صلاة والسلام في حين أن النبي ﷺ كما يزعم إرفينج – ليس له من معجزو سوي القرآن كما صرح بذلك بقول " واشنطن إرفينج " كثيرا من المسلمين نسبوا الى الرسول ﷺ وسلم كثيرا من المعجزات والأعمال الخارقة في حين أن الرسول ﷺ كان ينفي دائما أن له معجزات عدا القرآن الكريم الذي نزل به الوحي من السماء فهو يعتبر معجزته الكبري . [٢]

نقد هذه الشبهة :

إن المتأمل فيما أورده " واشنطن إرفينج " من شبهة أنكر فيها وجود معجزات حسية للنبي ﷺ وسلم يجده حديث خرافة صادر من نفس مريضة أو عقل غير مدرك لحقائق الأمور وذلك لما يلي :

١- لماذا يقف " إرفينج " وغيره هذا الموقف من المعجزات المادية للنبي ﷺ في حين أنهم عرفوا الكثير منها عند انبيائهم ورسلهم .

٢- إن إرفنيج " وقع في تناقض لا يقول به ذو عقل مدرك حيث أورد انكار للمعجزات المادية في حديثه ثم نراه يقول عن القرآن الكريم بأنه المعجزة

(١) الاسلام ورسوله في فكرة هؤلاء صـ١٠٧

(٢) " وشنطن إرفنج " حياة محمد " صـ ٢٩٧ تج د / علي حسني الخربوطلي ط ٢ دار المعارف ١٩٦٦م.

الكبري للنبي ﷺ والتعبير بالكبري في خدمته يفيد وجود معجزات أخري كبيرة للنبي ﷺ.

٣- إن ما ذكر إرفينخ " من إنكار للمعجزات المادية للنبي ﷺ مخالف لحقائق الأمور حيث إن المعجزات الحسية في مجموعها ثابتة عن طريق التواتر المعنوي .

٤- لقد ذكر " إرفينج " أن القرآن الكريم هو المعجزة الكبري للنبي ﷺ ولا ذكر لمعجزات اخري سواه في حين أن القرآن الكريم قد حوي في ثناياه حديثا عن بعض المعجزات المادية التي أيد الله بها سبحانه وتعالي نبيه عليه الصلاة والسلام من ذلك " انشقاق القمر حيث يقول الحق سبحانه ". اقتربت الساعة وإنشق القمر " (القمر (١) يقول الإمام القرطبي" قد ثبت بنقل العدول أن القمر قد انشق بمكة وهو ظاهر التنزيل وكانت أية باستدعاء النبي ﷺ نت الله عند التحدي " [١] .

وكذلك الإسراء معجزة ذكرها القرآن الكريم في قوله تعالي " سبحان الذي أسري بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الأقصي الذي باركنا حوله لنرية من آياتنا إنه هو السميع البصير " (الاسراء (١) وغير ذلك كثير مما ذكره القرآن الكريم ويستفاد من هذا أن ما زعمه " إرفينج " معجزة وحيدة للنبي ﷺ وهو القرآن الكريم قد اثبت في آياته غيره من المعجزات المادية .

٥- كذلك يجد المستقر في حقائق التاريخ والآثار أن كثير من المعجزات المادية قد ثبتت للنبيﷺ علي وجه قطعي يقيني في ضوء منهج علمي صحيح من ذلك

١- فيضان الماء من بين أصابعة ﷺ بالحديبية [٢]

٢- تكثير الطعام يوم الخندق حتي أطعم بصاع من شعير وجدي صغير جيشا كاملا [٣]

---

(١) الامام القرطبي الجامع لأحكام القرآنج ٩ ،ص ٥٦ ط دار الغد ويراجع التفسير الواضح د / محمد محمود حجازي جـ ٣ صـ ٣٥ ط ٦ ١٩٨٧ م.

(٢) رواه البخاري ٤/٥،٢٣٤/١٥٧،١٥٦"

(٣) متفق عليه اللؤلؤ والمرجان " ٣/٢١، ٥"

٣- حنين الجذع إليه ﷺ [١]

٤- رده ﷺ لعين قتادة عندما تدلت علي وجنته يوم أحد [٢]

٥- سماع النبي ﷺ بتسبيح الطعام بين يديه وإسماعه لأصحابه [٣]

٦- انشقاق القمر له ﷺ علي مرآي ومسمع من الناس [٤]

٧- تسليم الشجرة والحجر عليه ﷺ علي مرآي ومسمع من الناس [٥] وغير ذلك من المعجزات الحسية الثابتة بالنقل الصحيح والمتتبع لمعجزات النبي ﷺ المادية يجدها ذات قيمة من الناحية العلمية لأنها ذات سند معروف " فلان يروي عن فلان مع خضع له ذلك السند من تدقيق وتمحيص بينما الذي يذكره أهل الكتاب لا سند له فهو قول مرسل علي عواهنها ونحن المسلمين ما منا لنصدق ما ترويه الأناجيل عن عيسي عليه السلام – مثلا – ولو كان المصدر الوحيد لروايته هو الأناجيل لأن النصاري لم يكونوا أمناء علي خفظ إنجيل عيسي عليه السلام بل اختلقوا بدلا منه " اناجبل متنافرة – يزداد الريب فيها عندهم – عصرا بعد عصر . [٦]

٨- ومع ما تقدم من معجزات نجد الحق سبحانه وتعالي قد اختص النبي ﷺ بمعجزات مادية لا تزال باقية متجددة مع أن الاصل في سائر الخوارق المادية لا تزال باقية محدودة الزمان والمكان هذه المعجزة هي المعجزة هي ما صحب بعثة النبي ﷺ من " تساقط للشهب الثاقبة بنيرانها الحارقة التي تتبع

---

(١) البخاري ١١/٢١١

(٢) سيرة ابن هشام ٣٣/٣١ " ط احياء التراث العربي

(٣)رواة البخاري ٢٣٥/٤١

(٤) متفق علية اللؤلؤ والمرجان

(٥) صحيح مسلم " ٨٥/٧ " يراجع في هذا الموضوع أبو بكر الجزائري عقيدة المؤمن صـ ٣١٤ ط- بيروت وكذا المبدأني العقيدة الإسلامية وأسسها صـ ٣٣ ط دار العلم – دمشق

(٦) د/ عبد العظيم المطعني الإسلام في مواجهة الاستشراق العالمي صـ ٥٩ ط دار الوفاء والمنصورة .

أوكار المتسللين من لصوص الشياطين كلما حاولوا الاقتراب من السماء ليسترقوا أخبارها كما كانوا يفعلون قبلا فإنهم يجدون في طريقهم نارا تصب علي رؤوسهم صبا فتحرقهم وتبيدهم لقد حدث هذا لدي بعثة النبي ﷺ واستمر الى اليوم فمن منا لم يشاهد تلك الشهب تنقض من عل الى حيث يكون الهدف إنها ظاهرة تجديد كثيرا ولا نظن أن أحدا لم يشاهدها ولو مرة في حياته فهي خارقة مادية ومعجزة حسية مادية لم تذهب كما ذهب غيرها من الماديات بل باقية الى الآن ، متجدة بتجدد دواعيها .

ولقد عبر الحق سبحانه عن هذه المعجزة بقوله " وانه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا ، وأنهم ظنوا كما ظننتم ألن يبعث الله أحدا ، وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا ، وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا ، وأنا لا ندري أشر أريد بمن في الأرض أم اراد بهم ربهم رشدهم " الجن ٥-١٠ " .

وبقوله " إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب ، وحفظا من كل شيطان مارد ، لا يسمعون إلى الملأ الأعلى ويقذفون من كل جانب دحورا ولهم عذاب واصب ، إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب الصافات ٦-١٠ "

يقول الإمام القرطبي فيما علق به علي الآيات السابقة " لم يكن انقضاض الشهب إلا بعد مبعث النبيﷺ وهو آية من آياته ... فإن قيل إن هذا القذف والإنقضاض كان لأجل النبوة فلم دام بعد النبي ﷺ ؟ فالجواب أنه دام لدوام النبوة ... فصح أن الحكمة تقتضي دوام الحراسة في حياة النبي ﷺ وبعد أن توفاه الله الى كرامته ﷺ وبهذا يثبت مشاهدة وجود المعجزات الحسية المادية للنبي ﷺ إلى يومنا هذا .

المبحث السابع

المستشرقون والمعجزة القرآنية

لما كان القرآن الكريم هو المعجزة الكبرى التى خص الله سبحانه وتعالى بها نبينا ﷺ وكتب لها الخلود كشاهد صدق على عظمة هذا الدين وصلاحيته لكل زمان

ومكان لا جرم إن توجه المستشرقون إليها بشبههم محاولين النيل منها مظهرين من خلال شبههم سوء طويتهم وفساد قلوبهم ؛ هذه الشبه :

١- ما زعمه المستشرقون من وجود تناقضات ظاهرة فى القرآن الكريم حيث يقول " جولد تسيهر " (إن البحث فى التناقضات الظاهرة فى القرآن أصبح موضع حديث بين المؤمنين أنفسهم) [١] .

٢- وبعد هذه الشبهة نجد للمستشرقين شبهة أخرى حول القرآن الكريم يدعون فيها استمداده لما ورد فيه مما هو مشرع فى كتب اليهود والنصارى يقول " مونتغرمرى وات " لقد ابدى ورقه " [٢] ملاحظة بعد أن أخذ محمد يتلقى الوحى وهى تعنى أن ما ينزل على محمد مماثل لكتب اليهود والمسيحيين المقدسة كما أن محمدا سمع ما يوهمه بأنه مؤسس أمة ومشرع لها [٣] .

وقد تابع " وات " فى رأيه هذا " مروبرجر " الذى يقول " إن الرسول ﷺ " قد نقل عن اليهودية والنصرانية ولكن التعديلات التى أحدثها محمد ﷺ على ما أخذه من اليهودية والنصرانية هى التى أعطت الإسلام طابعة العربى [٤] .

ويقول " ريتشارد بل " [٥] " إن النبى ﷺ اعتمد فى كتابته للقرآن على الكتاب المقدس وخاصة على العهد القديم " [٦] .

٣- وبعد هذه الشبهة نجد كذلك شبهة أخرى يدعى أرباب الفكر الاستشراقى فيها نفى الموضوعية عن كتاب الله تعالى بل يصفون القرآن الكريم بالتحيز يقول " وات " جرت العادة بعض الوقت بأن القرآن هو المصدر الرئيسى لفهم الفترة المكية .

---

(١) العقيدة والشريعة فى الإسلام ص ٧٩ .

(٢) يقصد هنا ورقة بن نوفل .

(٣) محمد فى مكة ص ٩٢ ، ٩٣ ويراجع الإستشراق والمستشرقون ص ٢١ .

(٤) العالم العربى اليوم ص ٢٠ .

(٥) منصر ومستشرق انجليزى .

(٦) د/ محمود زقزوق الإستشراق والخلفية الفكرية للصراع ص ٢٠ .

ولا شك أن القرآن معاصر لتلك الفترة ولكنه متحيز ناهيك بصعوبة تحديد التسلسل الزمنى لمختلف أجزائه وما يحوم حول كثير من النتائج من شك . فهو لايمدنا بأى شئ يمكن أن يكون لوحة كاملة لحياة محمد والمسلمين خلال الفترة المكية وكل ما فعله كتاب السيرة الغربيون هوأنهم أقروا اللوحة التى تقدمها السيرة عن الفترة المكية فى خطوطها الكبرى واستعملوها إطارا لا يحتاج إلا لتوشيته بأكبر كمية ممكنة من موارد القرآن .

وبعد الاطلاع على جانب من شبهة المستشرقين حول المعجزة الكبرى فى الإسلام " القرآن الكريم " تنتقل الآن إلى تفنيد هذه الشبهة والوقوف على زيفها .

نقد الشبهة السابقة :

أولا : الشبهة الأولى :

بالنسبة للشبهة الأولى التى زعم فيها " جولد تسيهر "

وجود تناقضات ظاهرة فى القرآن الكريم فإن هذه الشبهة بينة البطلان وذلك لما يلى :

١- إن هذه الشبهة كلام مرسل لم يقم الدليل عليه من قبل من ساقوه أو غيرهم وفى البحث العلمى ومناهجه لا يمكن ثبوت مثل هذا الكلام بلا دليل أو برهان وإلا فأن كل إنسان يمكن أن يدعى لنفسه أو لغيره ما يشار بيد أن الفارق بين الحق والباطل هو الدليل الذى يسعف الدعوى وهذا ما خلا منه حديث " جولد تسيهر " فى شبهته تلك .

٢- كذلك يقول " تسيهر " إننا لم نسمع عن أحد من المؤمنين بحث فى تناقضات القرآن وذلك لا لشئ إلا لأنها غير موجودة أما أن فى القرآن الكريم آيات متشابهة فذاك حق ولكن لا يمكن تفسير المتشابه بالتناقض بحال من الأحوال .

٣- كذلك نجد الحق سبحانه وتعالى تعرض بالبيان والرد لما أثاره " جولد تسيهر " وأمثاله إذ بين الحق سبحانه أن مما يميز القرآن الكريم عن كلام سائر البشر خلوه من الاختلاف والتناقض مع طوله وامتداده وما ذلك إلا لأنه كلام الله سبحانه وتعالى وصدق الله إذ يقول " ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً " النساء ٨٥ .

٤- يقول الإمام الرازى فى شرحه للآية السابقة " ذهب أكثر المتكلمين إلى أن المراد من الآية أن القرآن كتاب كبير وهو مشتمل على أنواع كثيرة من العلوم فلو كان ذلك من عند غير الله لوقع فيه أنواع من الكلمات المتناقضة لأن الكتاب الكبير الطويل لا ينفك عن ذلك ولما لم يوجد ذلك علمنا أنه ليس من عند غير الله [١] فإن قيل أليس هناك تناقضا واختلافا بين قول الله تعالى " فوربك لنسئلنهم اجمعين " الحجر ٩٢ وقوله تعالى " فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان " الرحمن " ٣٩ " قيل فى الإجابة على ذلك " إن هذا محمول على اختلاف الأماكن لأن فى القيامة مواقف كثيرة ففى موضع يسألون وفى أخر لا يسألون ، وقيل ان السؤال المثبت سؤال تبكيت وتوبيخ والمنفى سؤال المعذرة وبيان الحجة " [٢] .

وهكذا قوله تعالى : " اتقوا الله حق تقاته " آل عمران ١٠٢ مع قوله : " فاتقوا الله ما استطعتم " التغابن ١٦ بأن ناسخة للأولى [٣] الجمع بين الآيتين نقول أن " الثانية ناسخة للأولى " [٤] فإن ما يوهم ظاهرة الاختلاف من آيات القرآن الكريم يمكن إزالة ذلك لبعض النظر العقلى فى الآيات والتفهم لها ويزيل ذلك أيضا الإلمام بعلوم القرآن الكريم التى بمعرفتها يمكن فهم آياته ومعانيه بلا لبس أو غموض .

رد الشبهة الثانية :

أما بالنسبة للشبهة الثانية التى زعم فيها المستشرقون استمداد القرآن الكريم من مصادر يهودية ونصرانية فإننا نقول فى الرد عليه .

١- أن ما ورد على لسان " وات " وغيره من المستشرقين حول هذا الموضوع مجرد افتراضات تخمينية لم ترد لتأكيدها أية رواية تاريخية على الإطلاق [٥].

---

(١) دفاع عن العقيدة ص ٧٠ .

(٢) الإمام الرازى مفاتيح الغيب ج ٥ ص ٣٣٢ ط دار الغد العربى .

(٣) الإمام السيوطى الإتقان فى علوم القرآن ج ٢ ص ٣٨ ط عالم المعرفة .

(٤) المرجع السابق ج ٢ ص ٣٠ .

(٥) المستشرقون والسيرة النبوية ص ٦١ بتصرف .

٢- كذلك أيضا ليس بمقدور أحد على الإطلاق أن يعثر على رواية تاريخية أو شاهد واحد ينفى أمية الرسول ﷺ ومن ثم ينفى ذلك إطلاعه ﷺ على كتب المتقدمين ليحاكيها وصدق الله القائل : وما كنت تتلوا من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لارتاب المبطلون " .

٣- ويكفى قبل هذا وذاك أن القرآن الكريم وهو المصدر اليقينى المتفرد – قد نفى نفيا قاطعا أن يكون الرسول ﷺ قد اتصل أو تلقى تعاليمه الدينية من أى رجل على الإطلاق قال تعالى : " ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذى يلحدون إليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين " النحل ١١١ ، ويقول سبحانه : " وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا ، قل أنزله الذى يعلم السر فى السماوات والأرض " الفرقان ٥ – ٦ .

٤- كذلك نقول لأصحاب هذه الشبهة إذا استمد النبى ﷺ ما أتى به من اليهود والنصارى لوجد المشركون فى ذلك مطعنا كبيرا فى نبوته وما أمنوا به لأنهم فى هذه الحالة سيعلمون أن ما أتى به إنما هو محاكاة لما كان عند غيره من يهود ونصارى بل ولأعلن اليهود والنصارى ذلك واعترضوا به عليه .

٥- أيضا مما يدحض هذه الشبهة اعتناق كثير من اليهود والنصارى الإسلام طوعا ورغبة من عند أنفسهم فلو كان القرآن الكريم وما أتى به النبى ﷺ مستمد مما بين أيديهم فلماذا يهجرونه ليدخلوا فى دين جديد .

٦- وإذا هناك تشابه فى علاج بعض المواضيع بين القرآن والكتب الدينية السابقة فلأنها صدرت فى الأصل جميعا عن مصدر واحد هو الله سبحانه وتعالى ولأن كتاب الله جاء لكى يستكمل بناءا كانت التوراة والإنجيل قد بدأته من قبل " وما كان هذا القرآن يفترى من دون الله ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين " يونس ١٣٧ ، " وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذى بين يديه " الأنعام ٩٢ .

ولكن يجب أن نتذكر أيضا أن فى القرآن حشودا من المقاطع والآيات تصحح " تحريفات " التوراة والإنجيل أو تعارضها أو تفندها وتطرح حقائق جديدة تغاير بالكلية ما طرحته التوراة والإنجيل " [١] بعد تحريفهما .

٧- كذلك نقول لمرددى هذه الشبهة عامة وبصفة خاصة الذى أضاف إليها تعديل النبى ﷺ لما استمده من اليهود والنصارى أننا لو فرضنا جدلا أن محمداً ﷺ هو الذى أنزل القرآن وصنع الإسلام ! ونستغفر الله من الكفر " فكيف يكون الذى يقول "... الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد " ناقلا عمن يقول إن عزيزاً ابن الله أو إن عيسى ابن الله ؟! أو يقول إن الله ثلاثة وإذا كان هذا هو " التعديل " الذى أدخله محمد ﷺ على اليهودية والنصرانية فهل كانت هذه عقيدة العرب أخذها الرسول ﷺ من قومه العرب وأدخلها فى الإسلام ؟! وهل كان العرب موحدين قبل أن يتنزل عليهم الإسلام من عند رب العالمين أم كانوا يقولون إن الملائكة بنات الله ؟ وغير ذلك من الأقوال الفاسدة . إن عقيدة التوحيد الخالص قد نزلت من عند رب العالمين فى وقت لم يكن فى الأرض كلها من ينادى بها لا اليهود ولا النصارى ولا العرب المشركون [٢] . وفى نهاية الرد على المستشرقين فى هذه الشبهة يجدر بى أن اذكر ما قاله هنرى دى كاسترى [٣] فيما يتعلق بهذا الموضوع إذ يقول لم يكن محمد يقرأ أو يكتب بل كان كما وصف نفسه مرادا نبيا أميا وهو وصف لم يعارضه فيه أحد وأنه يستحيل على أى رجل فى الشرق أن يتلقى العلم بحيث لا يعلمه ويعرفه الناس لأن حياتهم ظاهرة للعيان ولا تخفى على أحد ، لم يقرأ محمد كتابا مقدسا ولم يسترشد فى دينه بمذهب متقدم عليه لذلك انفرد الكتاب المنزل بالوحدانية ويستحيل أن يكون هذا الاعتقاد قد وصل النبى عن طريق قراءته للتوراة والإنجيل إذ لو قرأ تلك الكتب لردها لاحتوائها على مذهب التثليث وهو مناقض لنظرته مخالف لوجدانه .. ولم يكن محمد من المبتدعين

---

(١) المستشرقون والسيرة ٦١ وكذا الإستشراق والمستشرقون ص ٢٠ .

(٢) يراجع المستشرقون والإسلام ص ٢٧٣ بتصرف .

(٣) مستشرق فرنسى .

فقد نرى تشابها بين القرآن والتوراة فى بعض المواضع إلا أن سبب ذلك ميسور المعرفة ذلك أن محمدا كان ما جاء على لسان الوحى فى القرآن من الديانتين المسيحية واليهودية يؤيد الحقائق الدينية ولا عجب فى ذلك إن تتشابه تلك الكتب فى بعض المواضع خصوصا إذ لاحظنا أن القرآن جاء ليتمها [١] .

رد الشبهة الثالثة :

أما بالنسبة للشبهة الثالثة والتى زعم فيها " مونتغومرى وات " أن القرآن الكريم موسوم بالتحيز وعدم الموضوعية مع الشك فى النتائج التاريخية التى يطرحها فإننا نقول فى الرد عليه :

١- أن ما ذكره وات كلام مرسل على عواهنه لم يسعفه صاحبه بالدليل عليه وما ذلك إلا أنه حديث خرافة لا برهان ولا دليل عليه من ذات القرآن الكريم أو وقائع التاريخ .

٢- إن المتأمل فيما ذكره القرآن الكريم من آراء مختلفة وكاية عن الملل والنحل الأخرى يجده فى قمة الإنصاف والموضوعية إذ لو خلا من ذلك لاعترض عليه من أصحاب هذه الآراء ولكذب من خلالهم ولقالوا له ما قلنا مثل هذا ان ما ذكرته بهتان عظيم بيد أن الذى حدث على كان على النقيض من ذلك إذا حكى عقائد اليهود والنصارى والصابئة والمجوس وعقائد المشركين من العرب دون أن يكذبه فى حكايته أحد منهم وما ذلك إلا أن السرد القرآنى قد اتسم بالإنصاف والموضوعية بالحكاية عنهم .

٣- كذلك نجد دخول أرباب الملل الأخرى من يهود ونصارى ومشركين وغيرهم دليل على الموضوعية القرآنية إذ لو تحيز القرآن أو كذب عليهم فى الرواية ما أمنوا به بل كانوا به أول وأشد الكافرين والمكذبين .

٤- كذلك مما يعين على تكذيب هذه الشبهة وجود آيات العتاب فى القرآن الكريم وهى آيات عاتب الله فيها نبيه فى مواضع معينة مما لا تخل بعصمته عليه الصلاة والسلام فهل توجد موضوعية أكثر من هذا حين ينطق من نزل القرآن

---

(١) الإسلام ورسوله فى فكر هؤلاء ص ٦٧ .

عليه بآيات مما نزل عليه بتلاوتها ويتحدى بها لتأتى بتشريع على خلاف ما فعل عليه الصلاة والسلام . إن العوام من البشر قد يتذكروا لهذا بيد أن الصادق المصدوق الذى لا ينطق عن الهوى يريد أن يعلم الناس الصدق فى الحديث والموضوعية فى البلاغ فيذكر ما نزل عليه دون زيادة أو نقصان حتى لو كان ما يبلغه قد أتى على عكس ما فعل .

٥- كذلك مما يثبت الموضوعية للقرآن الكريم إخباره عن مكنونات الضمائر دون أن يجرؤ أحد من المخبر عنهم بتكذيبه بأن يقولوا إننا لم نضمر هذا فى أنفسنا قال تعالى : " ويقولون فى أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول " المجادلة ٨ ولكن لأن ما ذكره هو حديث الحق وقول الصدق الذى لا تجنى فيه لم يجرؤ أحد على تكذيبه .

٦- كذلك نجد الموضوعية القرآنية لا تقف عند حد الصدق فى الرواية بل فى طلب المعرفة والجدال نجد التجرد للحق ميزانا يجب أن يتبعه الإنسان فى طلبه " قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا الله مثنى وفرادى ثم تتفكروا " سبأ ٤٦ كذلك نجد القرآن الكريم وهو يستحث الإنسان أن يسير بفكرة فى اتجاهه الصحيح دون تأثر بأسمال بالية قالها الآباء أو آراء خاطئة رددها المشاهير والعظماء " وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون " البقرة ١٧ وقوله سبحانه " وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا " الأحزاب ٦٧ . كذلك نجد هذه الموضوعية بينة ظاهرة فى معاملة القرآن لمخالفيه فلم يعاملهم على أنهم قوالب جامدة بل دعاهم إلى اليقين والبرهان فى غير تعصب أو عنت فقال لهم " قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين " وغير ذلك كثير مما يدل على الموضوعية القرآنية فى طلب العلم والبرهان .

٧- كذلك يقول " مونتغومرى وات " إن كتاب الله تعالى ما جاء ليكون مؤلفا تاريخيا يتابع الجزئيات والتفاصيل لحظة بلحظة ويوما بيوم كما نجد فى العهدين القديم والجديد الذين دونا فى فترات لاحقة على نبوتى موسى وعيسى عليهما السلام وبرغم ذلك فقد استطاع عدد من الباحثين أن يستخلصوا من

القرآن الكريم حقائق تاريخية موضوعية قيمة عن العصرين المكى والمدنى وأن يصنعوا من نسيج الآيات ذات الصبغة التاريخية صورة عن السيرة وما يتعلق بها هى فى الحقيقة من أدق من كتب عنها إلى الآن ويكفى أن ننظر ! على سبيل المثال فيما كتبه الأستاذ " محمد عزة دروزة " سيرة الرسول صورة مقتبسة من القرآن الكريم " والأستاذ سيد قطب فى تفسيره لسور الأنفال وآل عمران والأحزاب والتوبة ومحمد والفتح وغيرها فى كتابه " ظلال القرآن"[١].

وكذا كتب التفسير الموضوعى نتبين من خلال ما تقدم وغيره مدى ما يمكن أن يقدمه كتاب الله تعالى عن وقائع التاريخ وأحداثه من معلومات ذات قيمة أكيدة بل عن القرآن الكريم بموضوعيته فى التعبير عن الأحداث أضحى الرائد الأول للمنهج الاسترادادى " التاريخى " فى معالجته للوقائع التاريخية على أننا ينبغى أن نفهم ونعى جيدا أن القرآن الكريم بجانب ما تقدم هو كتاب عقيدة ومنهج وحركة وإذا حدث وطرح جانبا من الوقائع التاريخية فإنه ليس يهدف إلى تكوين لوحة متناسقة شاملة لمجريات الأحداث فى عصر بكامله وإنما يهدف فى المقام الأول إلى ملامسة بعض هذه الأحداث والتعقيب عليها لكى يرتب منها موقفا تحفه من جنباته العبرة ليبنى به الإنسان المسلم والجامعة المسلمة أى أنه يعتمد أسلوب التعليم والتربية بالحدث وهو واحد من أشد الأساليب حيوية وعطاء يحقق ما يسمى بمبدأ (الاقتران الشرطى) ويجعل النمو الحركى للجماعة الإسلامية يستمد مقوماته من الواقع المعاش لا من النظريات المعلقة فى الفراغ والجدل العقيم .

المبحث الثامن

المستشرقون وعقيدة البعث

فى هذا المبحث سنتعرض بمشيئة الله تعالى لجانب من الأراء الاستشراقية حول عقيدة البعث حيث تتبلور هذه الآراء فى عدد من الشبه من أهمها :

---

(١) المستشرقون والسيرة ص ٧٠ .

١- ما زعمه المستشرقون من وجود شك فى العقيدة الإسلامية فى اليوم الآخر ودليل ذلك كما يتوهم المستشرقون تحاشى القرآن الكريم للرد على أسئلة المشركين عن الساعة . يقول مونغومرى وات " إننا نرى أثر الشك فى اليوم الأخير وراء السؤال الموجه إلى محمد " يسألونك عن الساعة أيان مرساها" ويرد القرآن على هذا السؤال أو يتحاشى الرد لأنه يمكن أن يحدث بلبلة لمحمد وهذا هو الهدف من سؤاله [١] .

٢- أما الشبهة الثانية للمستشرقين حول عقيدة البعث فقد قالها المستشرق اليهودى الألمانى " ولهلهم رودلف " وزعم فيها أن ما ذكره القرآن الكريم من حديث عن البعث واليوم الأخر قد استمده من اليهودية وان النبى ﷺ فى بداية أمره دعا الناس إلى الإيمان بالبعث العام للمحسنين والمسيئين يقول "ولهلهم رودلف" أهم ما جاؤ به " محمد " هو وصف محاكمة الدار الآخرة إذ أفاض القرآن المكى فيها إفاضة واسعة وقد استقى معلوماته من اليهودية وإن محمدا فى أول أمره كان يدعوا إلى البعث العام أى بعض الناس جميعا " [٢] ولم يذكر "رودلف" ما تغير فى آخر أمره عن أوله .

٣- أما الشبهة الثالثة فقد زعم المستشرقون فيها اهتمام القرآن الكريم بالنعيم المادى دون المعنوى ويعبر " ولهلهم رودلف " عن ذلك بقوله لقد ذكر القرآن النعيم المادى وحده وأهمل الجانب المعنوى وأضعف ما يقوله بعض المسلمين من أن النعيم الأبدى عند محمد هو فى اجتلاء طلعة الله إذ ليس فى القرآن بند لهذا الرأى وأما الآيات " وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة ووجوه يومئذ باسرة تظن أن يفعل بها فاقرة " القيامة ٢٢ : ٢٥ " فهى تصف حال الناس خلال المحاكمة لا فى النعيم " كما أن محمدا لم يذكر شيئا جديداً من نعيم الجنة سوى الحور أما كلمة عدن فهى ذات أصل يهودى وفردوس مسيحية وقد جعل

---

(١) محمد فى مكة ص ٢٠٠ .

(٢) صلة القرآن باليهودية والمسيحية ص ٣٥ .

القرآن الناس فى الجنة ذوى مراتب ويرجح أن تكون هذه الفكرة ذات أصل مسيحى " [١] .

رد الشبهة الاستشراقية حول عقيدة البعث :

سبق وعرضنا لجانب من شبه المستشرقين حول عقيدة البعث

وفيما يلى نتناول هذه الشبهه بالرد والتفنيد

رد الشبهة الأولى :

١- مر بنا ما زعمه "مونتغومرى وات " " من أن أثر الشك فى اليوم الآخر وراء السؤال الموجه للنبى ﷺ عن الساعة وذكر " وات " أن القرآن رد على هذا السؤال أو تحاشى الرد عنه لأنه يمكن أن يحدث بلبلة للنبى ﷺ وهذا الكلام من " وات " لدعة تصويره لشبهته حيث ذكر أن القرآن قد رد على السؤال عن الساعة ثم نراه فى العبارة التى تليها يذكر نفس القرآن الكريم بأنه يتحاشى الرد عنه ؟! " .

٢- كذلك نجد " وات " وقد خلط بين شيئين فى العقيدة الإسلامية حول البعث هذين الشيئين هما " تحديد موعد الساعة " " وإمكان الآخرة " ومن ثم ذكر الشك فى اليوم الآخر وتبعه بذكر السؤال عن الساعة وهذا لا يجوز لأن كلاهما شئ مختلف عن الآخر نعم لقد أخفى الله تعالى موعد قيام الساعة وهذا الإخفاء من الله لموعدها خلع عليها شدة فى الظهور لأنه فى هذه الحالة يظل الإنسان عاملا لأجلها منشغلا بها مترقبا إياها بخلاف ما إذا علمها الإنسان فقد سيظل مسوفا فى العمل الصالح حتى يقترب وقتها فيعمل حينئذ أن على تدارك ما فات ومع هذا الإخفاء من الله تعالى لموعدها إلا أنه لا ينفى قيام الآخرة موعد الساعة شئ وقيام الآخرة شئ آخر فإذا ما كنت طالبا فإننى على يقين من أنه لابد من انعقاد امتحان فى نهاية العام يكون على أساسه التقويم أما موعد هذا الامتحان تحديدا فهو الذى يعروه الإبهام وليس معنى هذا الإبهام المنتظر والموعود .

٣- تأسيسا على ما تقدم نقول إن القرآن وإن أبهم موعد الآخرة إلا أنه لم يتحاشى الرد على الأسئلة المتعلقة بإمكانها وتحققها فقد جاء " أبى بن خلف " إلى النبى ﷺ بعظم

---

(١) صلة القرآن باليهودية والمسيحية ص ٣٦ .

قد رَمَّ وبلى وقال له يا محمد أيحيى هذه ربك بعد ما رمت وبليت فقال له بلى ويحييك ويبعثك ويدخلك النار فكان قول الله تعالى : " وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحى العظام وهى رميم " يس ٧٨ " ولم يكتف الله فى كتابه بهذا القدر والوقوف عند مجرد الرواية للحدث بل اتبعه بعدد من البراهين العقلية المنطقية المفحمة للخصم والمؤكدة لوقوع الحدث فكان :

١- قياس الإعادة على البدء "قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم" يس ٧٩

٢- إخراج شئ من نقيضه " الذى جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون " يس ٨٠ .

٣- قياس إعادة الإنسان على خلق السماء والأرض " أوليس الذى خلق السماوات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم " . يس ٨١ .

٤- بيان الفارق بين فعل الله وفعل البشرية " إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون " يس ٨٢ .

وهناك براهين أخرى ذكرها الحق سبحانه مفرقة فى كتابه منها برهان الجزاء على الأعمال الذى يتحقق العدل من ورائه إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى " طه ١٥ .

رد الشبهة الثانية :

أما بالنسبة للشبهة الثانية والتى أوردها " ولهلهم ردولف " على عقيدة البعث زاعما أن حديث القرآن عن البعث قد استمده من اليهودية وأن القرآن فى حديثه عن البعث قد وقف عند حد ذكر البعث العام هكذا كان جانب من رأى " ولهلهم رودلف " حول عقيدة البعث وهذا الرأى مباين للحق لما يلى :

١- أن صورة البعث كما ذكرها القرآن الكريم وتحدث عنها النبى ﷺ تخالف تمام المخالفة ما تعارف اليهود عليه حول هذه العقيدة فاليهودية فى أصلها تقرر البعث والنشور واليوم الآخر والحساب والجنة والنار كما تحدث عن ذلك الإسلام وذلك لاعتمادهما فى المصدر أما أسفار العهد القديم بعد تحريفها على نحو ما هو بين أيدينا الآن فقد " خلت من ذكر اليوم الأخر ونعيمه وجحيمه ومن ثم لا نجد بين

فرقهم الشهيرة من يؤمن باليوم الآخر على الوجه الذى يقرره الإسلام وفرقة الصدوقيين تنكر قيام الأموات وتعتقد أن عقاب العصاه وإثابة المتقين إنما يحصلان فى حياتهم . وفرقة الفريسيين تعتقد أن الصالحين من الأموات ينتشرون فى هذه الأرض ليشتركوا فى ملك المسيح الذى سيأتى فى آخر الزمن لينقذ الناس من ضلالهم أى أن كل هذا يحصل فى الحياة الدنيا " [1] فمهما يكن من خلاف بين الفرقتين فإنهما يتفقان فى إنكار اليوم الآخر وبطبيعة الحال فإن هذه النظرة تختلف عما يقرره الإسلام بالنسبة لليوم الآخر ففى الإسلام برزخ وبعث وحشر وحساب وجنة فيها درجات ونار مختلفة الدركات والعذاب على تفصيل كبير فى كل ما تقدم من مواقف فكيف يستمد الإسلام حديثه عما تقدم من اليهودية المحرفة التى تقف فى حديثها عن البعث عند حد الحياة الدنيا يقول المستشرق الألمانى " جريمة " .

" أن فكرة بعث الناس وحسابهم ثم الانتهاء بهم أما إلى الجنة أو النار وخلود بعض الناس فى النار ... الخ . كل ذلك لا يمكن أن يكون مأخوذا من اليهودية إذ لا شئ فيها يصف هذه الحياة الأخروية " .

٢- أما ذكره بوقوف الحديث القرآنى عند البعث العام فهذا قول طاعن فى الفساد لأن الحديث القرآنى عن عقيدة البعث من بدايته اهتم بالتدليل عليها والحديث عن تفاصيلها فها هى سورة الحاقة على سبيل المثال وهى سورة مكية باتفاق العلماء تحدثنا عن القيامة وعلامتها الكبرى وتتحدث بعد ذلك عن مآل الناس بعد رعثهم قياما لرب العالمين فيقول الحق سبحانه " فأما من أوتى كتابه بيمينه فيقول : " **هَاؤُمُ اقْرَؤُوا كِتَابِيهْ * إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيهْ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ * فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ * قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ * كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ * وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيهْ * وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيهْ * يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ * مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيهْ * هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيهْ * خُذُوهُ فَغُلُّوهُ * ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ * ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ * إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ**

---

(١) د. على عبدالواحد وافى الأسفار المقدسة ص ٣٨ ، ط. نهضة مصر .

بِاللَّهِ الْعَظِيمِ * وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ * فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ * وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ * لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِؤُونَ " الحاقة ١٩ : ٣٧ .

وهذا نموذج واحد لأول صورة هى من أوائل ما نزل عند البعثة مما يتعلق بالحديث عن عقيدة البعث وإنى لأدعو - متحديا - كل من تراوده نفسه إلى ترويد مثل هذه الشبهة لمطالعة أية سورة مكية وما أكثرها لينظر هل ورد فيها ذكر البعث " العام " على نحو ما عبر وتحدث " رودلف " ان يجد فيها حديثا مفصلا ومبينا عن هذه العقيدة .

٣- رد الشبهة الثالثة والتى زعم فيها " ولهلهم رودلف " أن القرآن الكريم قد أهمل الجانب المعنوى من النعيم وأن تنعيم أهل الجنة برؤية ربهم أمر لا سند له ، وأن النبى ﷺ لم يذكر شيئا جديداً عن نعيم الجنة سوى الحور العين ، وأنه توجد كلمات خاصة بنعيم الجنة تعود إلى أصول يهودية ومسيحية كما أن القول بوجود مراتب فى الجنة أمر يعود إلى المسيحية هذا مجمل ما ذكره " ولهلهم رودلف " فى شبهته حول عقيدة البعث وهذا الكلام مردود عليه بما يلى :

١- أن ما زعمه من كون القرآن الكريم أهمل النعيم الروحانى قول باطل فكثيرا ما تكرر وصف المنعمين فى الجنة بقول الله تعالى : " رضى الله عنهم ورضوا عنه " البينة ٨ ، وهذا الرضا بلا شك نعيم معنوى . وفى سورة الأنعام يقول الله تعالى: " الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون " الأنعام ٨٢ ، وفى سورة فاطر يقول الحق سبحانه : " وقالوا الحمد لله الذى اذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور الذى أحلنا دار المقامة من فضله لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب " ٣٤ ، ٣٥ ونجد فى سورة التوبة قول الله تعالى : " وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة فى جنات عدن ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم " ٧٢ . فنعيم فى الجنة عظيم ولكن رضوان الله تعالى أعظم من كل نعيم وهو نعيم معنوى وهذا مما يكثر تكراره فى كتاب الله تعالى ويصف القرآن بجانب هذا النعيمالمعنوى من الغبطة ورضا النفس والتمتع برضوان الله تعالى ما يعانيه الكفار من متاعب وألام نفسية ومعنوية

مثل قوله تعالى : وتراهم يعرضون عليها خاشعين من الذل ينظرون من طرف خفى " الشورى ٤٥ . فنجد الخشوع والذلة حتى أنهم لا يجرأون على إدارة النظر فيما حولهم حياء وانكسار لذا ينظرون من طرف خفى ومن ذلك قوله تعالى : " واسروا الندامة لما رأوا العذاب " يونس ٥٤ وسبأ ٣٣ فهم فى هذا الموقف لا يجرأون على رفع أصواتهم ويكتمون الحسرة فى نفوسهم أليس هذا عذابا معنويا " [1] .

فإذا وازنت ما تقدم من آيات فى كتاب الله تناولت كلا من النعيم والعذاب الروحانى وجدت أنهما – يسيران جنبا إلى جنب مع النعيم والعذاب المادى .

٢- أما ذكره من أن تنعم أهل الجنة برؤية ربهم أمر لا سند له فى الإسلام وصرفه قول الله تعالى فى سورة القيامة : " إلى ربها ناظرة ..." إلى الحساب أو " المحاكمة " على حسب تعبيره لا النعيم فهذا لبس وفهم خاطئ منه لأنه سبق قبل هذه الآية ما يفيد حدوث الحساب وهو قوله تعالى : ينبؤ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر بل الإنسان على نفسه بصيرة ولو القى معاذيره " القيامة ١٣ : ١٥ . فلزم أن يتعلق ما بعدها بموقف آخر وهو النعيم فقال سبحانه : " وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة " بعد أن قدم لذلك بما يفيد المحاكمة والسؤال وبهذا تكون الآيات دالة على رؤية المؤمنين فى الجنة لربهم كأقصى ما يتمنونه من نعيم لأنفسهم ومن ثم كان قول الحق سبحانه " للذين أحسنوا الحسنى وزيادة " يونس ٢٦ . فالزيادة هنا رؤية وجه الله الكريم كما روى الإمام مسلم فى صحيحة عن صهيب عن النبى ﷺ قال : " إذا دخل أهل الجنة قال الله تبارك وتعالى : " تريدون شيئا أزيدكم فيقولون ألم تبيض وجوهنا ألم تدخلنا الجنة وتنجينا من النار قال فيكشف الحجاب فما أعطوا شيئا أحب إليهم من النظرة إلى ربهم عز وجل وفى رواية ثم " تلا للذين احسنوا الحسنى وزيادة " وخرج الإمام النسائى أيضا عن صهيب قال قيل لرسول الله ﷺ هذه الآية : " للذين أحسنوا الحسنى وزيادة " قال " إذا دخل هل الجنة الجنة وأهل

(١) صورة استشراقية ص ٧٧ بتصرف وزيادات .

النار النار ناد مناد أهل الجنة إن لكم موعداعند الله يريد أن يننجزكموه قالوا ألم يبيض الله وجوهنا ويثقل موازيننا ويجرنا من النار قال فيكشف الحجاب فينظرون إليه فوالله ما أعطاهم الله شيئا أحب إليهم من النظر ولا أقر لأعينهم" وروى جرير بن عبدالله قال كنا عند رسول الله ﷺ جلوسا فنظر إلى القمر ليلة البدر فقال : " إنكم سترون ربكم عيانا كما ترون هذا القمر لا تضامون فى رؤيته فإن استطعتم ألا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا " ثم قرأ " وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب " متفق عليه وخرجه أبو داود والترمذى وقال حديث حسن صحيح [1] وبهذا نقول إن المؤمنين بربهم يرزقهم خالقهم سبحانه بالتمتع لذة النظر إلى وجهه الكريم فتسعد قلوبهم وأرواحهم بما تفضل به ربهم عليهم كما توضح النصوص السابقة .

٣- أما ما ذكره " رودلف " من أن النبى ﷺ لم يذكر شيئا جديداً من نعيم الجنة سوى العزارى الحور " فهذا كلام خاطئ فقد سبق وأثبتا فى الفقرة الماضية رؤية الخالق سبحانه كنوع من أنواع النعيم فى الجنة بل أنها أقصى النعيم فيها ومنتهاه بل وعد النبى ﷺ فيما أوحى إليه أنواع أخرى من النعيم ذكرها فى كتاب الله تعالى : " مثل الجنة التى وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير أسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنها من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى ولهم فيها من كل الثمرات ومغفرة من ربهم " محمد ١٥ .

وقال سبحانه فى حق أهل الجنة فى آية أخرى " لهم ما يشاؤن عند ربهم " الشورى ٢٢ وهذا ضمان لتجدد نعيمهم تفضيلا من الله تعالى عليهم فما يشاؤنه يحقق هربهم لهم ويقول لهم ربهم فى آية أخرى " ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون ، يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وأنتم فيها خالدون " الزخرف ٧٠ : ٧١ " وإذا كان هذا جانب من نعيم الجنة فما هى إلا أمثلة لكى يتصور الخلق نعيمها بيد أن نعيمها

(١) تراجع هذه الأحاديث فى الجامع لأحكام القرآن ج ١٠ ، ص ٧١٤٤ .

أكبر وأعظم من ذلك حيث قال النبى ﷺ عن " فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر " (١) .

٤- وإذا ما أتينا إلى مازعمه " رودلف " من تأصيل لكلمتى " عن " إلى المسيحية" و " الفردوس " إلى اليهودية فإننا نقول له إن هاتين الكلمتين عربيتين أما كلمة إقامة يقول عدن بالمكان يعدن عدنا وعدونا أقام ومعدن الشئ مركزه ومستقره ومما يشهد لهذا المعنى قول الأعشى . " وإن يستضافوا إلى حكمه يضافوا إلى راجح قد عدن " (٢) .

وعلى هذا فإن " جنات عدن " تعنى جنات إقامة " .

أما كلمة " فردوس " والتى زعم " رودلف أنها كلمة يهودية فهى كذلك كلمة عربية تعنى "البستان" قال الفراء هو عربى والفردوس أيضا حدية فى الجنة(٣).

ومع التسليم الجدلى بما قاله " ولهلهم رودلف " بأن أصل هاتين الكلمتين اليهودية والمسيحية فإن هذا يعين على إثبات النبوة والرسالة من حيث عموميتها للعالمين فلأن النبى ﷺ مرسل إليهم أيضا ورد على لسانه ألفاظ من لغاتهم .

٥- وما ذكره " ولهلهم رودلف " من إمكان تأصيل ما ورد فى القرآن مراتب فى الجنة إلى المسيحية فإننا نقول له ماذا تقصد بالمسيحية ؟ إن كنت تقصد بها الرسالة الحقة التى نزلت على المسيح عليه السلام فليس هناك ما يمنع من توارد مقررات العقيدة معها لأن منزل العقيدة على جميع الأنبياء واحد هو الله تعالى إذن فوحدة المصدر تقتضى وحدة العقيدة لدى جميع الأنبياء والرسل هذا إن كان مقصده بالمسيحية الرسالة الحقة التى أنزلها الله على عيسى عليه

---

(١) رواه الإمام أحمد فى مسنده رقم ١٠٠٢٠ وكذا الإمام مسلم باب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ٥٠٥٣ وكذا البخارى ، التوحيد ٦٩٤٤ وتفسير القرآن ٤٤٠٦ وكذا رواه الإمام الترمذى فى تفسير القرآن عن رسول الله ٣٢١٤ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن ج ١٠ ، ص ٧٤٨٥ ويراجع الرازى نختار الصحاح ص ١٢٣٧ ط. بيروت .

(٣) مختار الصحاح ص ١٣ .

السلام أما إن كان مقصده بالمسيحية هنا ما ألفه الأحبار والرهبان بأيديهم بعد المسيح بسنين عديدة فقد جانبه الصواب لأن ما ورد فى العهد الجديد بعد تأليفه والذى بين أيدينا الآن ! عبارات مبهمة عن عقيدة البعث تجعل من المحال والقول بأن هذه العقيدة فى الإسلام مع تفاصيلها وأسبابها مستمدة من عبارات مجملة مبهمة تقف تقريبا عند حدود القول بالبعث العام تأثراً باليهودية على نحو ما سبق ومما يدل على ذلك ما ورد عند لوقا من كلام للمسيح لشخص دعاه وعمل له عشاء " إذا صنعت ضيافه فادع المساكين الجدع العرج العمى فيكون لك الطوبى إذ ليس لهم حتى يكافوك لأنك تكافأ فى قيامه الأبرار (١) وعند يوحنا عبارة قريبة من هذا إذ يقول المسيح " الحق الحق أقول لكم إن من يسمع كلامى ويؤمن بالذى أرسلنى فله حياة أبدية ولا يأتى إلى دينونة بل قد انتقل من الموت إلى الحياة ، الحق الحق أقول لكم إنه تأتى ساعة وهى الآن حين يسمع الأموات صوت بن الله والسامعون يحيون لا تتعجبوا من هذا فإنه تأتى ساعة فيها يسمع يها الذين فى القبور صوته فيخرج الذين فعلوا الصالحات إلى قيامة الحياة والذين عملوا السيئات إلى قيامه الدنيوية " ولعلنا نلمح هنا أن الذى سيحاسب العباد ليقوما بين يديه هو المسيح أما فى الإسلام فإن الذى سيحاسب العباد ويحييهم من قبل هذا هو الله رب العالمين فكيف مع هذا الاختلاف والتباين يقال بأن القرآن الكريم فى حديثه عن الآخرة والجنة ودرجاتها مستمد من المسيحية .

---

(١) لوقا اصحاح ١٤ ١٢ – ١٤ ، ط. كمبردج .

المبحث التاسع

المستشرقون وعقيدة القضاء والقدر

فى هذا المبحث نتناول إن شاء الله تعالى موقف المستشرقين من عقيدة القضاء والقدر والتى ولج المستشرقون إليها من باب " الجبر والاختيار " وكيف يحاسب الله تعالى عباده إذا كان قد قدر عليهم أعمالهم فلا تجز إلا بمشيئته . من هنا رأى المستشرقون فى القرآن وآياته تناقضا بين القدرة الإلهية والعدل الإلهى يقول "فلهوزن"[1] ويتردد فى القرآن الكريم بشأن القدرة الإلهية تارة وبشأن العدل الإلهى تارة أخرى وذلك بحسب ما كان يحس به النبى عليه الصلاة والسلام دون مراعاة للتوازن بين الطرفين ولا يشعر محمد عليه الصلاة والسلام بما فى ذلك من تناقض لأنه لم يكن فيلسوفا ولا واضعا لمذهب نظرى فى العقائد [2] .

رد هذه الشبهة :

١- إن ما زعمه " فلهوزن " من تناقض بين القدرة الإلهية الفاعلة والعدل الإلهى الذى يقتضى الحرية لتكون المؤاخذة على الأمال تناقض ، لا وجود له إلا فى مخيلته أما فى واقع الأمر وحقيقته فلا تناقض ، وذلك لأن الله سبحانه وتعالى خالق كل شئ بهذه القدرة ومع ذلك فقد أعطى للإنسان عقلا مميزا وحرية واختيارا فى الإتيان بالفعل أو عدمه .

ومن خلال هذه الحرية فى الفعل والترك والتى يستشعرها الإنسان فى نفسه ، وفى واقع حياته وفعله ، يكون الحساب ويتحقق العدل الإلهى من خلاله . ونزيد الأمر بياناً " فنقول " إن الإنسان لا يمكن أن يقول بأن النشاط البشرى كله تابع لإرادة حرة نابعة من شخص محصن ضد التأثيرات الخارجية . وحسب المرء أن يعترف بأنه مجبور فى دائرة محكمة أن يعلم بأن طبيعة عقله وجسمه التى يولد بها ليست

---

(١) مستشرق ألمانى توفى عام ١٩١٨م .

(٢) فلهوزن – تاريخ الدولة العربية من ظهور الإسلام إلى نهاية الدولة الأموية ص ٢ ترجمة د. محمد عبدالهادى أبو ريدة ط.١ القاهرة ١٩٥٨ ضمن سلسلة مشروع الألف كتاب .

من صنع يده " [1] ويلحق بها بما تقدم ما يقع على الإنسان من كوارث أو أحداث ونوازل أو أمراض مما لا دخل له فيه . وفى الوقت ذاته فإنه لا يمكن القول بالتجربة والمشاهدة أن الإنسان كائن مشلول لا حرية له أو قدرة أو اختيار لا يزيد فى خصائصه عن صنوف الكائنات الأخرى من جماد وحيوان وأنه كريشة طائرة أو جثة طافية . لا يمكن أن نقول هذا لامتياز الإنسان بالعقل به يتصرف حيال المواقف وبه يكتشف به ما يفعل وما يترك ويعرف به متى يمضى ومتى يقف . إذن فالإنسان له مناطق للجبر ومناطق للاختيار وهكذا قال الإسلام والذين يقولونإنه لا اختيار له يكذبون القرآن والواقع معا ، والذين يقولون إنه غير مجبور فى شئ يكذبون القرآن والواقع معا . أما القرآن فذكر أعمالا لا دخل للإنسان فيها مثل قوله تعالى فى سورة الشعراء " والذى يميتنى ثم يحين " ٨١ ، وذكر أعمالا للإنسان اختيار فيها " فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر " الكهف ٢٩ ، " ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها " الشمس ٧ – ١٠. ومن منطلق هذه الحرية التى ذكرها القرآن والتى يؤكدها الواقع حيث يستشعر ذلك الإنسان فى نفسه ويدرك ذلك بعقله يكون الذم والمدح والحساب وعلى هذا هل يمكن وصف الإنسان بأنه خالق ؟ والجواب " إذا أنشأ المهندسون والفعلة عمارة شاهقة فى أرض فضاء هل يعد صنيعهم هذا خلقا من العدم ؟ إن ما فعلواه يمكن وصفه بأنه خلق حقيقى لو أنهم أبرزوا الأحجار والأخشاب والحديد والحصى واللون من العدم المحصن ، أما وهم إنما جمعوا مواد كانت موجودة قبلا وأفرغوها فقط فى صورة جديدة فلا يمكن اعتبارهم خالقين إلا على ضرب من التجوز .

والقرآن تناول الإرادة الإنسانية على ضوء من الحقائق التى قدمنا بعضها هنا . فحكم بأنها حرة ومسئولة فى مجال الحرية والمسئولية الذى لا شك فيه وحكم بأنها مقهورة فى المجال الآخر ووزع نسبة الأعمال طورا إلى خالقها الحقيقى وطورا

---

(١) دفاع عن العقيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين ، ص ٩٨ ، ويراجع العقيدة الإسلامية وأسسها ص ٦١٣ .

إلى السبب فى خلقها وهو فى هذا التوزيع لا تنقصه ذرة من صدق " وبالحق أنزلنا وبالحق نزل " الإسراء ١٠٥ .

ولا مكان لتناقض بين شتى الآيات إلا إذا كان قولنا " الإنسان أبيض الجلد أسود الشعر متناقض ... لأننا نجمع بين البياض والسواد فى وقت واحد .

ان الله عز وجل فى آية واحدة من القرآن النازل بمكة – جمع بين المعنين الصحيحين المحكمين فقال " ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن يضل من يشاء ويهدى من يشاء ولتسئلن عما كنتم تعلمون " النحل ٩٣ . ختام الآية نقرر مسئولية المرء عن عمله وصدرها يلمح إلى القدر الأعلى !

وكان الله قادرا على خلق البشر كلهم ملائكة ولكنه لم يفعل وخلقهم على نحو صالح للابتلاء والتكليف والنجاح والسقوط فمن اتجه يمينا ثبت قدميه على طريق الخير ومهده له ومن اتجه يسارا لم يقف دقات قلبه أو يمنع رجليه من الحركة أنه يوجه الإنسان حيثما اتجه [١] .

وعلى هذا نقول لا تناقض مطلقا بين القدرة الإلهية والعدل الإلهى فى الاثابة أو العقاب على الفعل لأنه كما سبق وعلمنا للإنسان أفعال اضطرارية تقع منه أو تقع عليه ومن رحمه الله أن لا يؤاخذه بها لأنه سبحانه يعلم أنه لا حيلة له فيها بل فى النوازل التى تقع عليه وكذلك يثاب إذا صبر عليها وتقبل بصبر ورضا قدر الله فيها وكذلك يؤاخذ إذا قصر فى الأخذ بالأسباب لتوقيها قدر الطاقة والإمكان . وللإنسان كذلك أفعال اختياريه يأتيها بمقتضى عقله وحريته وبين له ربه فيها طريق الخير وطريق الشر وأرشده إليهما فإذا ما سلك أى الطريقين هيئ الله له مسلكه على مقتضى إرادة الإنسان واختياره ومن ثم يكون العقاب للمسيئ والثواب للمحسن . فإذا ما قرأنا قول الله تعالى : " من اهتدى فإنما يهتد لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها ، ولا تزر وازرة وزر أخرى " الإسراء ١٥ ، وقرأنا بعد ذلك "من يهده الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا " الكهف ١٧ ، نعلم يقينا أنه لا تناقض بينهما لأنه " قد وصف القرآن الإنسان بأنه يهتدى لنفسه لأنه

(١) دفاع عن العقيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين ص ١٠ .

سببه فعال وكائن مختار أو وصفه بأنه يهتدى بربه لأنه ليس خلاقا لظروفه التى تعينه أو الوسائل التى تبلغه هدفه " [١] .

٢- أما ما زعمه " فلهوزن " من أن النبى ﷺ لم يكن فليسوفا أو صاحب مذهب كلامى حتى يعالج الإشكالية التى توهمها وسبقت الإشارة إليها فى الفقرة السابقة فإننا نقول له لقد عالج النبى ﷺ ما رآه تناقضا (فلهوزن) على النحو البسيط المتقدم اضحى النبى ﷺ فوق الفلاسفة وأصحاب المذاهب الكلامية . ونقول " لفلهوزن " متسآلين " ماذا فعل الفلاسفة والمفكرون العقائديون خلال التاريخ كله فى حل المشاكل الذهنية أو العقلية التى يثيرونها فيما يتعلق بالذات الإلهية أو الصفات ؟ وأين منهم – جميعا – من منهم استطاع أن يقدم للناس فى شأن الألوهية كلاما أبسط وأوضح مما قدمه الإسلام ، ثم – وهذا هو الأهم – من منهم استطاع أن يقدم للبشرية عقيدة فى الله – فوق وضوحها وبساطتها تستطيع أن تكون قوة دافعة بانية مرشدة للإنسان تعينه على القيام بمهمة الخلافة الرائدة فى الأرض كما فعل الإسلام " [٢] .

المبحث العاشر

شبهات المستشرقين حول السحر وكرامات الأولياء

أن مما تعرض له المستشرقون بشبهاتهم من قضايا العقيدة السحر وكرامات الأولياء إذ شككوا فى ثبوت هاتين القضيتين فى الإسلام يقول : " آدم متز " [٣] فلما كان المتكلمون ينكرون السحر بجميع صوره بل وأنكروا كرامات الأنبياء فإننا نستطيع أن نعتبرهم من دعاة حرية الفكر والاستنارة رغم مذهبهم الكلامى وما كان لهم فيه من تدقيقات " [٤] .

(١) دفاع عن العقيدة ص ١٠٨ ، ويراجع عقيدة المؤمن ص ٢١٤ .

(٢) المستشرقون والإسلام ص ١٥٧ هذا وقد ورد الرد على شبهة الوحى النفسى فى المبحث الرابع من هذا الفصل .

(٣) مستشرق ألمانى ولد فى " فراى برج " عام ١٨٦٩ يراجع د. نجيب العفيفى المستشرقون ج ص ٤٣٠ ط. دار المعارف ١٩٨٠ .

(٤) آدم متز الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى ج١ ص ٣٥٧ ، ١٥٨ ط. دار التأليف والترجمة والنشر .

وهكذا تحدث آدم متز عن السحر وكرامات الأولياء مبينا أن متكلمى الاسلام قد وقفوا منها موقف الانكار ومن ثم رأى أن علماء الكلام بموقفهم هذا يعدون دعاة قضية لحرية الفكر والاستنارة فى الرأى .

رد الشبهة :

إن المتأمل فى الشبهة السابقة التى أوردها أدم متز يجد فيها كثيرا من الخلط المعيب الذى يفضح ويدين عن سوء طوية قائلة ويتضح ذلك من خلال ما يلى :

١- لقد ذكر متز أن المتكلمين ينكرون السحر بجميع صوره ولست أدرى من أين أتى بهذا الرأى الذى نسبه لمتكلمى الإسلام لأن علماء الإسلام لهم مذهبان فى حقيقة السحر .

الأول : يرى أن السحر حقيقة واقعية ملموسة وهذا مذهب أهل السنة والجماعة .

الثانى : يرى أن السحر نوع من التخيل والتوهم وليس له حقيقة ملموسة وهذا مذهب المعتزلة مع الأخذ فى الاعتبار أن أهل السنة فى مذهبهم وإن كانوا يرون أن للسحر حقيقة واقعية ملموسة إلا أنهم لا يمنعون أن منهم لا يمنعون أن منهم تخيلا وخداعا .

ويرون أيضا أن السحر " ما يقتل وما يمرض وما يصرف الرجل عن امرأته ومنهم ما يفرق به المرء وزوجه وما يبغض أحدهما للأخر أو يجذب بين الاثنين"[١] ومما تقدم ندرك أن المعتزلة وإن اختلفوا مع أهل السنة والجماعة والمتكلمين حول حقيقة السحر إلا أنهم لم يختلفوا معهم حول ثبوته ومن ثم نراهم يستدلون على مذهبهم بقول الله سبحانه "يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى" طه ٦٦.

٢- كذلك نقول لآدم متز كيف ينكر المتكلمون السحر وقد ثبت القرآن والسنة والاجماع أما القرآن فنجد قول الله سبحانه " واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر " البقرة ١٠٢ وقوله سبحانه " فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم "

---

(١) يراجع ابن قدامه المغنى ج١ ص ٥٥ ، ٥٦ ط. دار الغد وكذا سعد الدين التفتازانى . السمعيات من شرح المقاصد تحقيق د. سليمان خميس ص ٧٦ ط. دار الطباعة المحمدية ١٩٦٦ .

الأعراف ١١٦ وقوله " يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى " طه ٦٦ وثمة آيات كثيرة تتحدث عن السحر وتثبت حقيقته كما عينت قصة موسى عليه السلام ويثبت موقفه من السحرة . وهذه وتلك تدل على ما ذهب إليه أهل السنة من القول بأنه حقيقة ، ولا يمنع أن يكون منه تخيلا .

أما السنة فقد روى عن النبى ﷺ أنه قال :

" اجتنبوا السبع الموبقات أى المهلكات قالوا يا رسول الله وما هن قال الشرك بالله ، والسحر وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا وأكل مال اليتيم والتولى يوم الزحف وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات " [١] وثمة أحاديث كثيرة. أثبتت السحر وحذرت منه وبينت أنه من المهلكات .

أما دليله من الاجماع فقد أجمع صحابة رسول الله ﷺ على ثبوته وحقيقته وكاد التابعون وقرر ذلك جمهور علماء المسلمين وقد نقل الإمام القرطبى هذا الاجماع فقال "لقد شاع السحر وذاع فى سابق الزمان وتكلم فيه الناس ولم يبدئ من الصحابة ولا من التابعين إنكار لأصله" [٢] .

وبهذا نعلم أنه لا مكان من الصحة لما زعمه متز بأن المتكامين قد أنكروا السحر بجميع صورة وألوانه بعد أن تبين أن جمهور العلماء من المسلمين قد اتفقوا على ثبوتهوإن كان هناك خلاف بين المعتزلة وأهل السنة فى حقيقته إلا أنهم متفقون على ثبوته فى أصله .

* أما ما ذكره " متز " من أن المتكلمين أنكروا كرامات الأولياء فهذا أمر ظاهر الفساد لما يلى :

١- لأن المتكلمين لم ينكروا كرامات الأولياء ولست أدرى من أين أتى بهذا التعميم ليحكم على المتكلمين بهذا الحكم الجائر .

---

(١) صحيح مسلم ج١ ص ٣٧ باب ٣٦ الكبائر كتاب الإيمان رقم ١٤٥ دار احياء التراث العربى – بيروت .

(٢) الجامع لأحكام القرآن ج١ ص ٥٤٣ .

لأن جمهور المتكلمين ومنهم أهل السنة والجماعة ذهبوا إلى أن الكرامة ثابتة لأولياء الله تعالى" [١] جائزة الوقوع يقول الإمام الشوكانى عن وقوع الكرامة وثبوتها " من وهب له هذه الموهوبات [٢] الجليلة وتفضل الله تعالى عليه بهذه الصفات الجميلة فغير بعيد ولا مستنكر أن تظهر على يده الكرامات التى لاتنا فى الشريعة ، والتصرفات فى مخلوفات الله الوسيطة لأنه إذا دعاه أجابه وإذا سأله أعطاه والحاصل أن الله تعالى يتفضل على عباده بما يشاء والفضل بيده من شاء أعطاه ، ومن شاء منعه ، وليس لنا أن ننكر إلا ما أنكرته الشريعة المطهرة ، فمن جاء بما يخالفها دفعناه ومنعناه [٣] .

٢- كذلك نجد كرامات الأولياء وقد ثبتت بالنصوص الظاهرة ومن ثم يدلل الإمام التفتازانى على جواز وقوعها وثبوتها بما يلى :

أ- " ما ثبت بالنفى من قصة مريم عند ولاده عيسى عليه السلام وأنه " كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا قال يا مريم أنى لك هذا قالت هو من عند الله " وقصة أصحاب الكهف وبيتهم فى الكهف سنين بلا طعام وشراب وقصة الطرف وبهذا يجوز ظهور الخوارق من بعض الصالحين غير مقروءة بدعوى النبوة ولا مسوقة بقصد تصديق نبى " [٤] .

ب-ما تواتر معناه وإن كانت التفاصيل أحادا ! من كرامات الصحابة والتابعين ومن بعدهم من الصالحين ، كرؤية عمر رضى الله عنه على المنبر جديشة بنهاوند قال يا سارية الجبل وسمع سارية ذلك ، وكشرب خالد - رضى الله عنه السم من غير أن يضربه وأما من ولى - رضى الله عنه - فأكثر من أن تحصى " [٥] .

---

(١) الإمام الشوكانى قطر الولى على حديث الولى ص ٢٧٢ تحقيق د. إبراهيم هلال ط. حسان .

(٢) يقصد الإمام الشوكانى هنا - كما يدل السياق - طاعة الله تعالى واتباع سيدنا رسول الله ﷺ .

(٣) قطر الولى ص ٢٥٧ ، ١٦٠ .

(٤) السمعيات من شرح المقاصد ص ٦٩ .

(٥) المرجع السابق ص .

ونأخذ مما تقدم أن الإمام التفتازانى قرر أن ما ورد من كرامات وقعت للصحابة والتابعين - رضوان الله تعالى عليهم - وإن كانت جاءت بطريق الآحاد فإنها متواترة فى المعنى مما يقويها ويؤكدها على أن الثابت من هذه الكرامات بالقرآن الكريم مما أشار إليه قطعى الثبوت عنده ، وإن كان لم يرد نفى فى القرآن الكريم يدل على الكرامة بذات اللفظ ، فإنه قد ورد ما يوضح معناها وما هو فى سياقه وبالنظر إلى ما تقدم نقول إن خرق العادة على يد ولى من أولياء الله ليس بمستبعد بل إن آيات القرآن الكريم تؤكده وتدل عليه كما تدل عليه سنة النبى ﷺ وسلك قال تعالى : " ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب " الطلاق ٢ ، ٣ وقال تعالى : " إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا " الأنفال ٢٩ ، وقال تعالى : " ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيرا لهم وأشد تثبيتا وإذا أتيناهم من لدنا أجرا عظيما ولهديناهم صراطاً مستقيما " النساء ٦٨ وقال رسول الله ﷺ " اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنورالله " [١] .

وعلى هذا فإن جمهور العلماء قد أثبتوا الكرامة للأولياء على نقيض ما يدعيه " متز " وإن كان عارض بعض المعتزلة فى المسألة فكلامهم واهمردود عليه يقول شارح العقيدة الطحاوية وقول المعتزلة فى إنكار الكرامة . ظاهر البطلان فإنه بمنزلة إنكار المحسوسات " وقولهم لو صحت لاشبهت المعجزة فيؤدى إلى التباس النبى بالولى وذلك لا يجوز وهذه الدعوة إنما تصح إذا كان الولى يأتى بالخارق ويدعى النبوة هذا لا يقع ولو ادعى النبوة لم يكن وليا بل كان متنبئا كذابا فقولهم هذا مردود لأن من كرامات الأولياء ما حدث به القرآن الكريم وصح ذكره فى الأحاديث الصحيحة وتواتر النقل به والناس يشاهدون شئ منه فى كل عصر ومصروقد أنكر الإمام أحمد ذلك على من نفى ذلك ولم يصدق به وضلله [٢] .

وفى ضوء النصوص اليقنية والنقول الصحيحة ومنهجية الفكر يتهافت رأى "متز" فيما ذكره من إنكار المتكلمين لكل من السحر والحرامة وتتميما للرد على متز

---

(١) رواه الترمذى بسنده من سند بن مالك وابو سعيد الخدرى كتاب تفسير القرآن باب ١٦ رقم الحديث ٤٣١٩ .

(٢) يراجع شرح العقيدة الطحاوية للإمام الطحاوى تحقيق جماعة من العلماء ص ٤٩٧ ، ٤٩٨ ط. المكتب الاسلامى - بيروت .

نقول له " لقد ادعيت بأن إنكار المتكلمين للسحر والكرامة انما هو دعوة إلى حرية الفكر والاستنارة وزعمت بأن المذهب الكلامى فيه تدقيقات تخالف ما تقدم من استنارة وحرية ولكننا نقول لك إن المسألة على النقيض من ذلك فإثبات السحر وكرامات الأولياء هى الدعوة للحرية العقلية لأنه بوجودهما تكون الغرائب وخرق ما اعتاده الناس فى ناموسهم الكونى وهذا أمر من شأنه أن يحفز العقل على الإبداع فى المجالات الطبعية وأن يفسح أمامه مجالات أرحب فى الكون والعلوم ، وهنا يكون الابتكار لكل ما هو جديد ونافع أما تدقيقات المذاهب الكلامية فهى المنهجية العلمية التى ينادى بها فى عالم اليوم لذا أفرزت تلك المذاهب مدققين ومحققين ومجتهدين أثروا المكتبة الإسلامية والتى تناقلتها أوربا لتتخذ منها زاداً لنهضتها من خلال مدونات وأسفار فى العلم ومناهجه والحكمة وفنونها .